قناة السويس

في مائة عام

د. عبد الرحمن حميدة

لمحة تاريخية :

يبدو تاريخ قناة السويس موغلاً في القدم كالتاريخ نفسه . واقـــدم اثر لدينا يشير الى وجود ترعة السويس واهتمام الفراعنة بها منذ ٤٠٠٠ عام تقريباً . وهكذا كانت هناك شبكة من القنوات تصل النيل بالبحر الاحمر . فقد عمد الفراعنة الى وصل مجرى النيل بالبحيرة المرة الكبرى ومنها تم فتح قنـــاة اخرى الى البحر الاحمر . وقد اهتم قدامى المصريين بتحسين هذه الترعة ولا سيما في عهـد الفرعون نيخوس الذي حكم في النصف الثاني من القرن السابع قبل المسيح . وكانت تستخدم القناة بالدرجة الاولى

من اجل الري . وبالتالي في الملاحة النهرية المحلية ، اي في سبيل وصل وادي النيل بالطريق التجاري بين الشرق والغرب عبر البحر الاحمر . وعندما احتل الفرس بقيادة داريوس الكبير بلاد مصر عمل هذا على توسيع الترعة وصيانتها .

وعندما اصبحت العلاقات التجارية بين دول اوروبا البحرية وبين الهند والشرق الاقصى متينة ، راودت كبار الساسة الاوروبيين فكرة حفر برزخ السويس ، ثم اصبحت تفرض نفسها اكثر فأكثر . فقد كان على السفينة ان تمخر عباب البحر مسافة ٢٢٦٠٠ كيلو متر كي تقطع المسافة بين مرسيليا وبومباي ، مارة برأس العواصف ، اي رأس الرجاء الصالح ، وهو الطريق الوحيد للوصول الى الهند، عوضاً عن ٩٥٠٠ كيلو متر فقط فيما لو كانت قناة السويس قائمة .

جدار رملي طوله ١٦٠ كيلو متر

من المتعذر الكلام عن قناة السويس دون ذكر اسم فرديناند دوليسبس الذي ارتبط اسمه بها . ومع ان هذا الرجل قد فشل في حفر قناة بناما الاميركية وهو في خريف عمره ، فقد كان الحظ حليفه في افريقيا ، وأهم ما يلفت النظر في شخصيته الثبات والعناد .

قام دوليسبس في عام ١٨٥٢ بتصميم مشروع ضخم، تبلورت فيه فكرته التي تراود نفسه منذ عشرين عاماً . ولكن احدا اصدقائه أسر اليه ان صاحب مصر، عباس باشا ، لم يكن بالرجل الذي يستطيع فهم جدوى مشروع كهذا ، فقام ليضع ملف المشروع في الخزانة، وانصرف الى ادارة مزرعته على أمل أن يسعفه الحظ فيما بعد . وفي ذلك دليل على عناده وأيضاً على صبره . وفي ايلول ١٨٥٤ بلغه نبأ



وفاة عباس باشا واعتلاء محمد سعيد عرش مصر ، وهو احد ابناء محمد علي باشا الخمسين . وقد قرع هذا النبأ المزدوج اجراس الأمل في اذنيه من جديد ، فقد كان محمد سعيد صديقه القديم وأحب اصحابه اليه أثناء اقامته في مصر .

نائب الملك لا يرفض :

لم يتأخر دوليسبس عن ركوب البحر قاصداً الاسكندرية عندما حسب أن ساعته قد أقبلت . ولكنه لم يتعرض في هذه المرة لمضايقات موظفي الصحة ، وكان هذا من حسن طالعه ، لأنه كان يرغب في الوصول بأسرع وقت ممكن .

وخلال اول محادثة ، اكد نائب الملك محمد سعيد لضيفه صداقته الحميمة ودعاه لمشاهدة مناورات جيشه في الصحراء الليبية . وفي صباح احد الأيام ، بينما كان في معسكر المرعى ، شاهد دوليسبس قوس قزح يرتسم في السماء فوق رمال الصحراء فشعر بقلبه يخفق بشدة ورأى في ذلك الفأل الحسن . وكان هذا المشهد بالنسبة له تشجيعاً ورمزاً لوحدة الغرب والشرق . وعندها قرر أن يفاتح نائب الملك


البحر المتوسط
بحيرة المنزلة
دمياط
بورسعيد
البحر الصغير
المنصورة
القنطرة
الاسماعيلية
بحيرة التمساح
الزقازيق
بنها
بلبيس
الشرقاوية
شبين القناطر
القاهرة
السويس
الري في شرق الدلتا

بالموضوع الذي ملك عليه شغاف قلبه . وأعاره محمد سعيد اذناً صاغية بينما كان يداعب لحيته الحمراء صامتاً . وأظهر له قناعته دون أن ينبس ببنت شفة .

وهنا اخذت الحيرة تعتور نفس دوليسبس ، ولكنه لم يرغب في أن يستعجل الأمور وآثر التروّي . وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني عقد نائب الملك « الديوان الكبير » بعد عودته الى العاصمة . وفي خطاب بسيط جداً شرح لأعضائه من الوزراء قراره القاضي باصدار « فرمان ٣٠ تشرين الثاني » قائلاً : « لقد لفت صديقنا فرديناند دوليسبس انتباهنا الى الفوائد التي ستعود على مصر من وصل البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر بواسطة طريق صالح لملاحة السفن الكبرى ، واحاطنا علماً بامكانات تشكيل شركة تحقق هذه الغاية ويساهم فيها رأسماليون من كل الأمم . وقد استلمنا كل الدراسات التي عرضها علينا ، وبموجب أوامرنا هذه منحناه السلطة المطلقة لتأليف ولإدارة الشركة العالمية لفتح برزخ السويس ولاستغلال القنال بين البحرين » .

ولكن دوليسبس لم يصدق اذنيه ، لأن الامتياز الضروري للبدء في اعماله الأولية ، قد أعطي اليه دون أي احتياط . ولكنه لاحظ وهو في أوج فرحه ان دبلوماسياً ، من بين الحاضرين ، قد امتقع وجهه ، وهو المستر بروس Bruce ، قنصل انكلترا العام . وقد جعلته هذه الاشارة المستنكرة ، التي ظهرت على وجه ممثل الملكة فكتوريا ، يستنتج فوراً ان هناك مصاعب ستنتظره من هذا الجانب . غير أن رد فعل حكومة نابوليون الثالث التي منحت نائب الملك ، أي محمد سعيد ، شريط جوقة الشرف طمأنه على تصديق مشروعه من قبل حكومة باريس .

كان دوليسبس يضمر حقداً اسود للحكومة البريطانية التي عملت

كل شيء للحيلولة دون بناء القنال . فقد نجحت فعلاً في تأخير تصديق عقد الامتياز مدة ١٢ عاماً ، أي حتى ١٨٦٦ ، من قبل السلطان العثماني ، أي التصديق على الامتياز الذي منحه نائب ملك مصر الى دوليسبس . كما حاول الانكليز بالفعل من جهة ثانية تحريض السلطان على التدخل عسكرياً في عام ١٨٧٣ ضد العاملين بالقناة. ولكن ما أن فرضت انكلترا حمايتها على مصر فيما بعد حتى اصبحت تعادي بضراوة كل فكرة ترمي لتدويل القنال ، أي ضـد ماسبق أن اقترحته الدول العظمى بالماضي ، ولا سيما فرنسا ذاتها .

قنال مستقل عن النيل :

لم تدهش الارتكاسات البريطانية دوليسبس . فبعد اطمئنانه على دعم حكومة باريس ، عمد الى تشكيل لجنة دولية مهمتها ان تقرر ، ماذا كان تنفيذ مشروع القنال ممكناً . وقامت هذه اللجنة من العلماء بسلوك الطريق الذي قطعه دوليسبس في مصر قبل عام ودرست تفاصيل الارض ، ووازنت بين المصاعب والفوائد المحتملة ، واعطت قرارها الأخير ممهوراً بموافقة الجميع . ولكن هذه التعقيدات التي سببت مرض محمد سعيد ، نائب الملك ، بالبدء ، جعلته مسروراً جداً من النتيجة . فاعطى دوليسبس عقداً جديداً بالامتياز يوضح غموض بعض النقاط ، ولا سيما حياد القنال المطلق ، والتنازل المجاني عن الأراضي البور التي ستدخل بالاستثمار على اثر حفر قناة المياه العذبة ، والتزام الشركة باستخدام الأيدي العاملة المصرية بنسبة لاتقل عن الاربعة اخماس ، واخيراً ادخال نص يرمي لتبرير مخاوف الانكليز الذين خشوا ان يتحول العمال الى جنود في خدمة فرنسا في حالة نشوب نزاع دولي .

وجاء تقرير اللجنة ، التي استبعدت الفكرة القائلة بضرورة استخدام النيل في قطاع من طريق القنال ، يوصي بسلوك الطريق المباشر أي بفتح طريق مباشر يمتد على خط مستقيم طوله ٢٠ كيلو متراً يبدأ من السويس الى البحيرات المرة ، ثم يجتاز بعدئذ بحيرة التمساح ماراً بموقع الغشر كي يصل بحيرة المنزلة ومن ثم حتى صدر خليج بيلوز . كما نص على بناء ميناءين ، احدهما على البحر الأحمر ، قرب بلدة السويس ، والآخر على البحر المتوسط يطلق عليه اسم بورسعيد ، كاعتراف بجميل نائب الملك محمد سعيد . واخيراً اوصى بمد قناة مياه عذبة تمتد من فرع النيل الشرقي حتى بحيرة التمساح .

وقرر دوليسبس قبل أن ينتقل من حقل الدراسة الى ميدان العمل ان يحارب النفوذ البريطاني للمرة الأخيرة فحمل حقيبته وعبر بحر المانش قاصداً بريطانيا حيث عقد هناك ٣٢ ندوة في خلال ٤٥ يوماً ، متنقلا بين أهم مدن انكلترا كي يقنع هذا البلد المتحفظ بصدق نواياه ، وبامكانية تنفيذ هذا المشروع على الصعيد المادي وبأرباحه ايضاً .

فرنسا تكتتب بحماس :

وظلت هناك نقطة جوهرية تستدعي الحل ، وهي مشكلة الأموال اللازمة . ولما كان دوليسبس واثقاً من نفسه ، فقد رأى امكانية حفر القناة خلال خمسة اعوام وبكلفة قدرها ١٣٠ مليون فرنك [١] .

ولما كان قد رفض عون اصحاب البنوك ، ولا سيما عرض البارون

---

(١) ولكن مشروعه كلف عملياً ٤٣٧ مليون فرنك ، كما استغرق تنفيذ مشروعه عشرة اعوام .

روتشيلد الذي طلب نسبة ٥٪ كعمولة ، مثلما لم يرغب في ان يسمح لرجال المال الجشعين ان يستولوا على مشروعه ، فقد استأجر مكتباً في ساحة فاندوم بباريس واعلن عن الاكتتاب. وقد كان انهيال طلبات شراء الاسهم اكبر بكثير مما كان يتوقعه.

وبعد أن افتتح الاكتتاب في الخامس من تشرين الثاني ١٨٥٨ لبيع ٤٠٠٠٠٠ سهم بقيمة ٥٠٠ فرنك ذهبي للسهم ، اغلق الاكتتاب نفسه في ٣٠ من الشهر المذكور . ولكن هذه « الشركة المؤلفة من صغار الناس ومن خدم المقاهي » حسب أقوال بالمرستون الساخرة كانت تضم بالفعل مروحة عريضة من المهن والاوضاع الاجتماعية .

امتياز ينتهي في عام ١٩٦٨ :

وبتاريخ ٢٥ نيسان ١٨٥٩ قام دوليسبس ، بحضور خبرائه ومهندسيه ، و ١٥٠ من العمال ، بأول ضربة معول رمزية في المكان الذي ستنتهي عنده القنال على ساحل البحر الابيض المتوسط . وقد كان صدى ذلك متبايناً ، لأن هذا الفرنسي نسي ان الحكومة العثمانية توافق بأكثر من وعد شفوي ، اي ان الامتياز يفتقر للتصديق .

وكان ذلك نقطة الضعف التي استغلتها انكلترا على شكل مؤامرة خلف الكواليس . فقد أخطر دوليسبس بتاريخ ٩ حزيران بأن عليه ان يوقف اعماله غير المسموح بها ، فتوجه فوراً الى باريس كي يقرع باب الامبراطورة وكي يحرك بلادة نابوليون الثالث ، اذ كان عليه ان يعرف كيف يستفيد من علاقاته الشخصية. وبالفعل دب النشاط في دم الامبراطور على اثر انتصار جيوشه في معركتي ماجنتا وسولفرينو في ايطاليا ، فقرر التدخل بحماس لدى الباب العالي وكان ذلك كافياً . ففي يوم ٢٤ كانون الاول ١٨٥٩ قبل الاتراك مبدأ الموافقة .

وبعد الحاح وضغط نابوليون الثالث وقعت حكومة استانبول على الفرمان الذي ينظم الامتياز وذلك في ٢٢ شباط ١٨٦٦ . وبناء على هذا الفرمان تتشكل شركة قناة السويس البحرية العالمية لمدة قدرها ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ تدشينها ، أي ان امتيازها ينتهي بتاريخ ١٦ تشرين الثاني ١٩٦٨ . وبعد انتهاء هذا الموعد تعود الشركة للحكومة المصرية التي عليها ان تشتري كل التجهيزات . ويكون توزيع الارباح كما يلي : ١٥٪ للحكومة المصرية ، ١٠٪ للمؤسسين ، ٢٪ لرجال الادارة ، ٢٪ لصندوق التقاعد واكراميات المستخدمين ، ٧١٪ للمساهمين .

واستناداً الى نصوص الاتفاقات الاولى لاتكتفي حكومة مصر بمنح الاراضي المجاورة للقنال مجاناً ، فحسب بل كان من المتفق عليه ان تقدم اربعة اخماس العمال المستخدمين في اعمال الحفر . ومن اجل ذلك لجأت الى تعبئة عشرات الآلاف من الفلاحين الذين كانوا يعملون حسب نظام السخرة في حفر قناة المياه العذبة بين ٢٥ نيسان ١٨٥٩ حتى ٢ نيسان ١٨٦٢ . وكان الآلاف منهم يموتون ، من الارهاق والحمى والحوادث فضلاً عن سوء التغذية .

وكتبت جريدة « العلم للجميع » في ذلك العصر تقول : « ها قد تم فتح ذلك البوسفور الدولي بمبلغ ٢٠٠ مليون فرنك على الاكثر ، وهو مبلغ يقل بمقدار النصف عما انفقناه على سكة الحديد بين باريس وليون » . ولكن هذه الجريدة لم تتكلم عن الثمن « البشري » الذي كلفه حفر القناة . ولكي نكوّن فكرة عن ذلك يمكننا ان نقرأ ما كتبته جريدة اخرى حينذاك : « اذا حدث وتاهت احدى تلك القوافل التي تنقل لهم الماء من النيل ، فانهم ، اي الفلاحين العاملين بالقنال ، سيتعرضون للموت عطشاً بلا ريب » .

واذا كانت ملفات الشركة تشير الى ان العمال المصريين الذين اشتغلوا بالحفر قد تراوح عددهم بين ٢٥ و ٥٠ الفاً في فترة ١٨٥٩ - ١٨٦٨ فان حفر القنال قد كلف حياة ١٢٠٠٠٠ شخص .

ولكن كان لابد من أن تلجأ الشركة الى وسائل تكنولوجية للاسراع في انجاز المهمة المطلوبة . فاستقدمت كراكات محكمة الصنع تدفع بالأتربة بعيداً عن ضفة القنال بواسطة مجرى طوله ٦٠ متراً . وكانت كل واحدة منها تقوم بعمل ١٠٠٠ رجل . وهكذا امكن اقتلاع الخمسة وسبعين مليوناً من الامتار المكعبة من الرمال والصخور .

وتشير السجلات الى قائمة الآليات التي استخدمتها الشركة خلال عمليات الحفر : ٦٠ كراكة كبيرة ، ١٤ كراكة صغيرة ، ١٨ رافعة ، ٦٧ نقالة ، ٥٢ عربة متحركة آلياً ، ١٢ سفينة قاطرة ، ١٥ سفينة خزان الخ ... وكان من اللازم ، من اجل تموين هذه الآلات البخارية بالوقود ، استيراد ١٠٠٠ طن من الفحم الحجري شهرياً . وكانت الورشات تتعاقب على طول طريق القنال مما ادى لنشوء قرى جديدة بكل معنى الكلمة من اجل ايواء ١٫٥١٪ سنوياً بالنسبة للاوروبيين و ١٫٧٨٪ بالنسبة للعمال المصريين وذلك بالرغم من وباء الكوليرا .

وتم توصيل مياه النيل الى بحيرة التمساح في الثاني من شباط ١٨٦٢ ، وبذلك انتهى العمل في قناة المياه العذبة والملاحة النهرية . وقرر دوليسبس اطلاق اسم اسماعيل خليفة محمد سعيد على المدينة التي اخذت تقوم على ضفة بحيرة التمساح ، وهكذا ولدت مدينة الاسماعيلية .

وفي آب ٢٥آب١٨٦٩، وبحضور وزير الاشغال العامة علي باشا، قام رئيس عمليات الحفر ، المهندس فوازان بك ، بنسف الحاجز الرقيق الذي كان لايزال يفصل بين جزئي القنال ، أي الشمالي والجنوبي . وهكذا تحقق ربط البحرين . وفي اليوم التالي انطلق مركبان من بور سعيد وقد وصلا الى السويس . وبذلك تحقق انتصار جيش عمال دوليسبس السلمي .

أجمل موكب في العالم :

لقد أناب الامبراطور نابوليون الثالث ، الذي اعتذر لمرضه ، زوجته الامبراطورة أوجيني ، التي كانت فخورة بابن عمها العبقري دوليسبس ، وسعيدة بالقيام برحلة ممتعة بهيجة . فامتطت اليخت « النسر Aigle » ووصلت يوم ٢٢ تشرين الأول ١٨٦٩ ، حيث كان الخديوي اسماعيل في استقبالها مع ولي عهده توفيق . ثم استقلت مع الخديوي عربة سكة الحديد الفاخرة الى مصر المحروسة ، فوصلت في الساعة الثالثة الى محطة مصر « وكانت مزينة بالأعلام الاسلامية والفرنساوية مرونقة من أجل قدومها بأنواع الأزهار والمنسوجات البهية ، واستقبلت عند نزولها أعظم استقبال .

وقد افتتح الاحتفال بقصف مدفعية السفن الحربية الراسية في الميناء فاختلطت رائحة البارود بعبق البخور . وفي فجر اليوم التالي دخل يخت الامبراطورة أوجيني ، على رأس قافلة بحرية لامثيل لها ، في الخندق المحفور في قلب الصحراء ، وخلفها ستون سفينة . ووقف فرديناند دوليسبس، الذي اسكرته نشوة النجاح ، على سلم اليخت يشرح لابنة عمه الامبراطورة ، ويعدد لها المصاعب التي تغلب عليها . وكان الجمهور العربي بثياب العيد ، وعلى ظهور الخيول والابل،

يواكب أجمل موكب بحري في العالم ، على طول ضفتي القنال .

وبلغ الموكب القنطرة في الساعة الثانية عشرة والنصف . ثم اجتاز بحيرة التمساح ، وتوقف في الاسماعيلية لقضاء الليلة فيها . وقد نصب الخديوي ، اكراماً لجمهور المتفرجين ، الذي قارب عددهم ٦٠٠٠٠ شخص ، الف خيمة كبيرة ، ومائتي مائدة عليها مايكفي من الطعام لأن يأكل الجميع ويشرب مجاناً . وانبثق من وسط الرمال قصر احلام يبعث من جديد روائع الشرق الاسطورية كي يضم الرؤوس المتوجة و كبار المدعوين ، من أمراء ووزراء ، وعلماء وفنانين ، و كبار القواد ورجال الصناعة . وبعد انتهاء الوليمة استلم دوليسبس من يدي ابنة عمه الامبراطورة صليب جوقة الشرف . وأنفقت مصر على هـذه المهرجانات الباذخة التي أقيمت بهـذه المناسبة مبلغ مليون جنيه وهي قيمة لها أهميتها في ذلك العصر (*)

(*) جاءت الامبراطورة اوجيني الى مصر بعد زوال ملكها ، ونزلت متنكرة في احد فنادق بور سعيد ، فنظم حافظ ابراهيم فيها قصيدة رائعة ، يقارن فيها بين مجيئها الى مصر ، امبراطورة ، ضيفة اسماعيل ، بمناسبة افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، وبين مجيئها هذا الى مصر عام ١٩٠٥ امرأة وحيدة جللها المشيب . ويقول حافظ :

أين يوم القنال يا ربة التا ... ج ويا شمس ذلك المهرجان ؟
اين مجرى القنال ؟ اين مميت الما ... ل ؟ اين العزيز ذو السلطان ؟
قد طواه الردى ولو كان حياً ... لمشى في ركابك الثقلان
وتولت حراسة الموكب الأسنى ... في نجوم السماء والنيران
ان يكن غاب عن جبينك تاج ... كان بالغرب أشرف التيجان
فلقد زانك المشيب بتـاج ... لا يدانيه في الجلال مداني
ذاك من صنعة الانام وهذا ... من صنـع المهيمن الديّان
كنت بالأمس ضيفة عند ملك ... فانزلي اليوم ضيفة في خـان
واعذرينا على القصور ، فانا ... غيرتنا طوارىء الحدثان .

في البدء كان التقدم بطيئاً :

ما ان مضت ايام اعياد التدشين واحتفالاته ، حتى تجلت الحقيقة المرة وهي أن حركة القنال التجارية كانت دون ما كان يرجى منها بكثير . فكما لا يمكن ان يحصل صاحب السفينة على حمولة يشحنها بمجرد ان يمتلك سفينة ، كذلك لا يمكن ان تكون القنال رابحة بين يوم وآخر ، حتى ولو كان شقها يعتبر عملاً تقنياً رائعاً . وهكذا كانت العملية بطيئة ، لأن الملاحة تحاشت هذا الطريق المخالف للتقاليد المعهودة . ويجب ان نتذكر ان ٨٥٪ من سفن ذلك العصر كانت شراعية . وكان عليها ان تتخلى عن قيادتها كي تقطرها السفن الباخرة عندعبورهاالقنال . وهكذا كانت العائدات اقل من المؤمل بكثير . ففي عام ١٨٧٠ لم يعبر بالقنال سوى ٤٨٦ سفينة ، حمولتها الاجمالية ٤٣٦،٦٠٩ طن بدلاً من ٦ ملايين طن حسب تقديرات الشركة . ومرت سنون عديدة قبل ان تبلغ رسوم العبور قدراً يسمح بتساقط ارباح كثيرة في خزائن الشركة . ثم اخذت الاحوال تتحسن شيئاً فشيئاً مع تزايد المبادلات التجارية الدولية فبلغت حمولة السفن التي عبرتها الارقام التالية :

عام ١٨٨٠	٤٤٣٣٠٠٠	طن
« ١٨٩٠	٩٩٣٠٠٠٠	«
« ١٩٠٠	١٣٦٩٩٠٠٠	«

الانكليز يتدخلون :

ومن ثم اخذت بريطانيا تحس بالخطأ الذي ارتكبته بوقوفها بمعزل عن هذا المشروع . واخذت تتحين الفرص المواتية التي لم تتأخر كثيراً ، اذ جاءتها في عام

١٨٧٥ . فقد كان الخديوي اسماعيل يعاني مصاعب ماليـــة كبيرة فعرض على الحكومة الفرنسية شراء حصة مصر من الاسهم في شركة القنال . وكانت هذه تعادل ٤٥٪ من مجموع الاسهم بالاضافة الى ١٥٪ من مجمل ارباح الشركة. ولكن وزير المالية الفرنسي حينذاك ، وهو ليون ساي Say ، كان صديقاً لعائلة روتشيلد اليهودية التي تملك ناصية المصارف في اهم عواصم اوروبا . وكانت عائلة روتشيلد المقيمة في فرنسا تعرف ان ابناء عمومتها في بريطانيـــا يرغبون في شراء الاسهم المذكورة . لذا راحت الحكومة الفرنسية تسوّف وتماطل الى ان تمكن رئيس وزراء بريطانيا ، دزرائيلي ، من شراء ١٧٧٠٠٠ سهم مصري بثمن بخس هو ٤ ملايين جنيه ، اي اربعة امثال نفقات الاحتفال الذي اقامه الخـــديوي ايام احتفالات التدشين . وتقول الموسوعة البريطانية ، طبعة عام ١٩٤٧ ، الجزء ٢١: «ان مبلغ اربعة ملايين جنيه الذي وظفته بريطانيا في حصصها من قنال السويس عام ١٨٧٥ قد استوفته ثمانية اضعاف من ارباح الفوائد التي حصلت عليها » .

السياسة وحياد القنال :

في خـــلال حرب السبعين كانت السفن التجارية والحربية الفرنسية والروسية ، والتي كان يقودها جميعاً مرشدون فرنسيون ، تعـــبر القنال وتتحاذى بسلام . وقد وقع بتاريخ ١٥ آب ١٨٧٠ حادث غير مألوف وفريد ، فقد رفعت احدى السفن الفرنسية اعلام الزينة بمناسبة عيد ميلادنابوليون الثالث . وحدث ان مرت بمحاذاتها سفينة حربية المانية لم تتردد ، هي ايضاً ، في رفع اعلام زينتها وفي تحية سفينة الدولة المعادية .

وفي ١٨٨٢ أنزل الجنرال البريطاني ولزلي Wolseley قواته في بور سعيد

بحجة قمع تمرد في الاسكندرية ، مما أدى إلى توقف الملاحة في القناة مدة اربعة ايام . وقد احتج دوليسبس على خرق الحياد هذا ولكنه لم يحصل من الانكليز على اكثر من تهديد بحفر قناة ثانية تنافس قناته .

وهكذا تراءت للدول المستخدمة للقناة ضرورة وجود معاهدة دولية تضع القنــاة في معزل عن أي عمل عدائي في حالة نشوب حرب . وأخيراً ، وبعد مناورات سياسية طويلة ، أمكن التوصل لاتفاق القسطنطينية بتاريخ ٢٩ تشرين الاول عام ١٨٨٨ الذي ظل حتى السنوات الأخيرة ، الأساس الوحيد لكيان القناة العالمي .

وقد وقعت عليه الدول التسع الكبرى في ذلك العصر وهي : المانيا ، النمسا ، اسبانيا ، فرنسا ، بريطانيــا ، ايطاليا ، هولندا ، روسيا وتركيا . ويشير البند الاول منه ، وهو اهم بنود الاتفاق ، الى حياد القناة بالعبارات التالية : « ستكون قناة السويس البحرية حرة ومفتوحة ، في حالة السلم كما في حالة الحرب ، لكل سفينة تجارية وحربيــة ، دون تمييز في الراية التي ترفعها . وبالتالي يوقع الاطراف الكبار المتعاقدون على عدم المساس بحرية استخدام القناة ، في حالة السلم ، كما في حالة الحرب . ولن تخضع القناة مطلقاً لممارسة حق الحصار » . ولكن الاتفاق يشير الى ان القناة ستظل جزءاً لا ينفصل عن مصر .

وقد احترمت الحروب المتعاقبة فرمان عـام ١٨٨٨ في حين اضطرت مصر فعلاً الى التزام الصمت ، دون ان يكون لها حق التدخل في شؤون القناة التي أصبحت عملياً خارجة عن سيادتها . وهذا الوضع هو الذي سيقود حتماً الى انطلاق الشرارة الأولى فوق البارود .

وفي خلال الحرب الروسية اليابانيــة عام ١٩٠٤ استخدم الاسطول

الروسي القنال بانتظام دون أي عائق . كما لم تؤد الحرب الايطالية التركية لأية حادثة . ولكن الأمر كان على خلاف ذلك أثناء الحرب العالمية الاولى في ١٩١٤ – ١٩١٨ .فقد اتخذ مجلس الوزراء المصري، بناء على ايعاز من الحكومة البريطانية ، قراراً يسمح « لقوات الحكومة البريطانية البحرية والبرية بممارسة كل حقوق الحرب في الموانىء والاراضي المصرية » . وهنا ابتعد قواد السفن الالمانية عن القنال لما علموا بذلك النبأ . وفشلت الحملة الالمانية العثمانية الخطيرة في عام ١٩١٥ ، بقيادة جمال باشا ، للاستيلاء على القنال . كما لم تفلح الطائرات الالمانية التي القت الألغام في عرقلة السير في القناة جدياً .

وقد عمدت بريطانيا في مطلع الحرب العالمية الثانية ، وذلك استناداً الى بعض الاتفاقات ، الى بسط سلطتها المطلقة على القنال رغم ان مصر كانت مستقلة رسمياً منذ عام ١٩٣٦ ، فرابطت سفنها الحربية فيها وراحت تفتش كل السفن المحايدة « خشية » ان تقوم احداها باغراق هيكلها او بوضع الالغام بين بورسعيد وميناء السويس . ولم يكتم المحور عزمه على تعطيل القنال ، فقامت الطائرات الالمانية بالقاء الالغام عليها كما قصفت مؤسسات الشركة . ورغم النجاح الجزئي الذي أحرزه الالمان فقد ظلت الملاحة مستمرة فيها اذ لم تتعطل القنال اكثر من ٧٣ يوماً خلال أعوام الحرب الخمسة . اذ أمكن جر السفن المصابة بالالغام الى خارج القنال .

وعندما احتدم النزاع بين العرب واليهود من أجل فلسطين عام ١٩٤٨ حالت الحكومة المصرية بين السفن الاسرائيلية وبين عبور القنال ، وراحت تفتش السفن المشبوهة في الموانىء المصرية ، وتصادر البضائع المنقولة الى اسرائيل او المشحونة منها باعتبارها دولة معادية .

وفي ١٩ تشرين الاول ١٩٥٤ تم توقيع الاتفاق المصري البريطاني الذي انهى مفعول معاهدة ١٩٣٦ كما انهى وجود القوات البريطانية على ضفاف القنال وبذلك أصبحت مصر الدولة الوحيدة المسؤولة عن تطبيق اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ .

القنال تستعبد مصر :

بعد النجاح البطيء الذي احرزته القنال بالبدء ، سرعان ما أصبحت أسهم « السويس » افضل مكان لتوظيف الاموال العاطلة عن العمل في بورصات اوروبا . فبعد ان كان سعر السهم الواحد عند الاصدار ٥٠٠ فرنك ، هبط سعره الى ٢٧٢ فرنك ، ثم الى ٢٠٨ فرنكات في عام ١٨٧١ . ثم أخذ سعر السهم يصعد شيئاً فشيئاً بفضل سرعة تطور الملاحة البخارية فوصل الى ٣٥٥فرنكا في ١٨٧٢ وبلغ ٤٣٤ فرنكا بالعام الذي تلاه والى ١٠٧٥ فرنكا في ١٨٨٠ ، والى ٣٦٢٠ في ١٩٠٠ . وعند تأميم القنال في ١٩٥٦ كان سعر السهم قد بلغ ٤٠٠٠٠فرنك أو ٨٠ مرة سعر الاصدار الاول .

ولكي توطد بريطانيا سيطرتها على القنال رأت نفسها مدفوعة لاحتلال مصر ذاتها .وابتداءاً من عام ١٨٨٢ـ وبدعوى قمع ثورة معادية للاجانب ـ احتلت جيوش « صاحبة الجلالة » ارض مصر ، وفي ١٩١٤ تقدمت بريطانيا بخطوة اخرى فوضعت مصر تحت حمايتها . والواقع لقد ظلت مصر أسيرة قنالها ، أو بالأحرى أسيرة شركة القنال . وظلت على هذا الحال حتى عام ١٩٣٦ عندما ادخلت بريطانيا تعديلات على نظام هيمنتها على مصر . فمعاهدة ١٩٣٦ قضت على نظام الحماية شكلاً ولكنها كرست الاحتلال البريطاني بالواقع ، وذلك باسدال

ستار رقيق عليه . فانسحب الجنود البريطانيون من المدن الكبرى كي يتمركزوا في مدينة الاسماعيلية وعلى ضفاف البحيرات المرة ، أي في المواقع الاستراتيجية التي تتحكم في القنال .

حرمان مصر من خيرات القنال خلال نصف قرن :

تعود مطالب مصر ، تجاه الامتيازات الفاحشة التي أخذت شركة قنال السويس تتمتع بها ، تعود لعهد انشائها الاول . وكانت هذه المطالب تتزايد كلما شعرت حكومة القاهرة انها أقل ارتباطاً ببريطانيا وبالديون البريطانية .

ومنذ عام ١٨٨٣ طالب الخديوي اسماعيل ، الذي خلف سعيد باشا ، صديق دوليسبس ، بالغاء العمل الاجباري ، أي نظام السخرة ، مهدداً بتوقيف تنفيذ المشروع . وطلب تحكيم نابوليون الثالث الذي أقر مطالب الخديوي ، كما امر باعادة ٦٠ الف هكتار من الاراضي المروية بقناة المياه العذبة المشتقة من النيل ، ولكن مصر اضطرت ان تدفع تعويضاً لشركة القناة قدره ٨٤ مليون فرنك من عملة ذلك العصر . وقد منحت قناة المياه العذبة الحياة لخمس مدن على ضفاف القناة بالاضافة الى اقليم زراعي ممتد على طول القناة ، او بعبارة اخرى أوجدت الظروف الملائمة لحياة حوالي نصف مليون انسان .

وقد جرت مفاوضة جدية بين الحكومة المصرية وبين شركة القنال في آذار ١٩٤٩ . وكان هدفها مناقشة تطبيق الشركة للقانون المصري الصادر في عام ١٩٤٧ والقاضي بأن يكون ٧٥٪ من العاملين في الشركات و ٤٠٪ على الاقل بين اعضاء مجلس ادارة كل شركة مساهمة مغفلة مصرية ، متمتعين بالجنسية المصرية ، وهذه الحالة تنطبق على شركة القنال التي لم تستطع ان تنكر تبعيتها لمصر في أي يوم من الايام .

ولكن الشركة التي كانت تتفاوض مع حكومة ضعيفة لم « تتنازل » عن شيء هام . واستناداً الى الاتفاق الحاصل قبلت الشركة ان يكون ٧ أعضاء من أصل ٣٢ في مجلس ادارة الشركة من المصريين اعتباراً من عام ١٩٦٤. ولكن « التمصير » استثنى كبار موظفي البحرية والمرشدين من هذه النسبة المئوية .

وبالاضافة الى ذلك زادت حصة مصر من العائدات نوعاً ما فأصبحت تنال ٧٪ من الارباح الخام أو حوالي١١٪ من الارباح الصافية بينما لم تستفد مصر شيئاً خلال كل الفترة الواقعة بين ١٨٨٠ و ١٩٣٦ .

مراحل تحرير مصر وقنالها:

لقد ادت موجة التحرر الوطني العارمة التي هبت على العالم بعد الحرب العالمية الثانية الى مضاعفة ابعاد كفاح الشعب العربي المصري ضد البريطانيين . وبذلك شملت الحركة الوطنية كل طبقات السكان بالبلاد . ففي ١٦ تشرين الاول من عام ١٩٥١ قام مصطفى النحاس ، رئيس الوزراء وزعيم حزب الوفد بالغاء معاهدة ١٩٣٦ التي اشترك هو بتوقيعها .

وهكذا كثرت الاضرابات ضد الانكليز في منطقة القنال لدرجة اصبحت البقاع المجاورة للقنال مسرحاً لمعارك غير نظامية . وقداشتركت المنظمات الرياضية ، والدينية ، وحركات الشباب ، والكشافون ، وحتى الجمعيات النسائية بتقديم كتائب المناضلين الاحرار .

وكان في يد الانكليز الملك فاروق الذي استعانوا به على كبح جماح هذه الحركة إلا أن هذا اضطر اثر ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ ان يتنازل عن العرش . وهكذا فقدت بريطانيا اهم ورقة لعب في يدها . واضطرت ان توقع بعد عامين من الثورة اتفاقاً تسحب بموجبه كل قواتها من الاراضي المصرية .

وفي شهر حزيران ١٩٥٦ وقعت شركة القنال اتفاقاً مع الحكومة المصرية يكمل اتفاق حزيران ١٩٤٩ وتعهدت الشركة بمقتضاه ان توظف ٢١ مليون جنيه من اموالها في مصر منها ١٠ ملايين قبل انقضاء عام ١٩٥٦ .

وهكذا كانت سياسة الحكومات المصرية قبل التأميم ترمي دوماً الى « تمصير » موظفي الشركة وارباحها تدريجياً . ورغم بعض الخطوات الايجابية فان هذه السياسة لم تعط الا القليل من الثمار . فمثلاً لن يكون بين المرشدين الذين كانت مهمتهم قيادة السفن عبر القنال سوى ٣٢ مصرياً ، مقابل ٥٤ فرنسي و ٥٢ بريطاني و ١٣ هولندي و ١١ نرويجي و ٩ يونانيين و ٣ إيطاليين و٣دانمركيين وامريكيين وبلجيكيين وسويدي وبولوني ويوغوسلافي . اي ان المرشدين المصريين كانوا يؤلفون ١٧٪ من اصل المجموع وهو ١٨٧ مرشداً .

وفي ١٨ تموز ١٩٥٦ غادر آخر جندي بريطاني ارض مصر .

ارباح الشركة تبلغ ارقاماً خيالية :

لقد كانت (شركة قنال السويس البحرية العالمية) من أروع المؤسسات الرأسمالية في العالم . فقد ارتفع دخلها في عام ١٩٥٥ - وهو العام الذي سبق التأميم - الى حوالي ٣٤٠ مليون ليرة سورية ، في حين ان نفقاتها لم تتجاوز ١٨٠ مليون ، اي حققت في ذلك العام ربحاً قدره ١٦٠ مليون ليرة سورية .

ونلاحظ ان رأسمال الشركة كان يتألف قبل التأميم من ٨٠٠ الف سهم موزعة كما يلي :

آ - كانت فرنسا تملك ٤١٥٠٠٠ سهم او ٥٢٪ من رأسمال الشركة موزعة على عدد كبير من المساهمين .

ب - كانت بريطانيا تستحوذ على ٣٥٣٢٠٤ أسهم او ٤٤٪ من رأس المال ، وهي ملك الحكومة البريطانية .

ح - والباقي او ٣١٧٩٦ سهم ، كان في ايدي مساهمين من مختلف دول اوروبا .

وفضلاً عن ذلك كان هناك ١٠٠٠٠٠ سهم بأيدي المؤسسين ومعظمهم من الفرنسيين .

واذا عرفنا ان عدد اسهم الشركة الاصلية وهي ٤٠٠٠٠٠ سهم قد تضاعف دون ان يدفع المساهمون مبالغ اضافية ، وجدنا ان ثمن السهم الذي كان سعره ٢٥ ليرة ذهبية « نابليون » عند التأسيس قد تضاعف حوالي ٥٠ مرة .

اما الرسوم التي كانت تتقاضاها الشركة فكانت ٣٤ قرشاً مصرياً عن كل « طونو » او برميل حمولة اي ١٫٤٤ متر مكعب بالنسبة للسفن المحملة ، و ١٥٫٥ قرشاً مصرياً عن كل برميل حمولة اذا كانت السفينة فارغة العنابر . ومنذ عام ١٩٤٩ اعفيت السفن التي تقل حمولتها عن ٣٠٠ طن من الرسوم . وفي ١٩٥٠ الغيت الرسوم على ركاب السفن وذلك لمنافسة شركات الطيران .

اعمال التعميق والتعريض :

لقد ظهر منذ البدء ، وبسرعة كبيرة جداً ، ان اهمية القنال ونجاحها يرتبطان بصورة وثيقة بأعمال التحسين المستمرة . فما ان عاد العالم دوبوي دولوم de Lôme - الذي حضر حفلات التدشين - الى فرنسا حتى اشار في تقرير رفعه للامبراطور نابليون الثالث الى ملاحظاته على القنال واوضح نقاط ضعفها وعدم كفايتها ، لأنه كان على السفن الثقيلة الوزن ان

تخفف من حمولتها كي تجتاز القنال بسهولة . وكان قعر بعض السفن يلامس القاع، بينما كان بعضها يجنح للشط مما كان يؤدي لضياع الكثير من الوقت . الأمر الذي دفع الشركات البحرية الى مطالبة شركة قناة السويس بشدة بمضاعفة عرض القناة او حفر قناة ثانية .

وضعت برامج متعاقبة لتعريض القناة وتعميقها كي تتلاءم مع تطور سفن الشحن البحري ، التي اصبحت اكثر ضخامة ، واكثر سرعة ، واكثر عدداً . فاذا كان عدد السفن التي عبرت القناة عام ١٨٧٠ لم يتجاوز ٤٨٦ سفينة فقد ارتفع بعد عشرة اعوام فقط الى ٢٠٢٦ باخرة والى ٣٤٤١ في عام ١٩٠٠ والى ١٤٦٠٠ في عام ١٩٥٥ . وبعد ان كانت مدة اقامة السفينة بالقنال وسطياً تبلغ ٤٨ ساعة في عام ١٨٧٠ انخفضت الى ٢٤ ساعة في عام ١٨٩٠ والى ١٨ ساعة ونصف في عام ١٩٠٠؛ وذلك بفضل تعميم الملاحة الليلية .

فبعد مرور البخت النمو الذي كانت تركبه الامبراطورة أوجيني، لم يكن يسمح بمرور أي سفينة يتجاوز غاطسها خمسة أمتار . وابتداء من عام ١٨٧١ أصبح بامكان السفن التي يبلغ غاطسها ٧،٥ أمتار ان تعبر القنال . وقد تمكنت الشركة من زيادة الغاطس تدريجياً الى ١٠ أمتار في سنة ١٩٣٠ أي مايعادل عمقاً فعلياً قدره ١١،٧ متراً اذا أخذنا هامش الأمان بعين الاعتبار . ولتسهيل تقاطع السفن انشئت د محطات ، قدمت خدمات جلى ، الى أن جاء يوم ظهرت فيه هذه الطريقة غير كافية أيضاً .

قبل عام ١٩٣٩ كان مقدار البترول الذي يجتاز قناة السويس لايزيد وسطياً عن ٥ ملايين طن ، فارتفع هذا الرقم الى ٣٧ مليون طن في عام ١٩٤٩ والى ١٠٧ ملايين طن في عام ١٩٥٥ . وهكذا انقلبت كل المفاهيم التي كانت ماتزال

مقبولة حتى ذلك الحين . وهذا مادفع الى ضرورة سن تشريع جديد للقنال . فأصبح على كل سفينة تصعد القنال من الجنوب أن تتوقف ١٥ مرة اذا تقاطعت مع ١٥ سفينة نازلة من الشمال . وابتداء من أيار ١٩٤٨ قررت الشركة تنظيم قافلة واحدة من السفن يومياً وفي كل اتجاه .

وفي عام ١٩٥١ قامت الشركة بتنفيذ برنامج تحسين ، هو السابع من نوعه، وذلك بحفر قناة فرعية طولها ١٠ كيلومترات في منتصف الطريق وبمحاذاة القناة الأصلية . وبذلك أصبح من الممكن تقاطع القافلتين دونما خطر . كما أدى تنفيذ البرنامج الثامن الى حفر قناتين فرعيتين ، اولاهما على مسافة أربعة كيلو مترات من بور سعيد والأخرى على مسافة سبعة كيلومترات من البحيرة المرة .

وبفضل هذه التحسينات المتعاقبة انخفض الوقت اللازم للعبور وسطياً الى ١٥ ساعة ، كما أمكن تنظيم ثلاث قوافل يومياً .

وهكذا نجد أن شركة قنال السويس التي كلفتها أعمـــال الحفر الاولى انتزاع ٧٥ مليون متر مكعب من الحجارة والأتربة بين عامي ١٨٥٩ و ١٨٦٨، اضطرت أن تقوم بعمليات تحسين متتالية اضطرتها الى اقتلاع ٣٠٠ مليون متر مكعب من هذه الأنقاض الصخرية بين ١٨٦٨ و ١٩٥٥ .

وضع القنال قبل التأميم:

أصبحت قناة السويس ، وهي طريق اوروبا الى الهند واقطار الشرق الأقصى ، في عام ١٩٥٥ طريقاً للنفط . فقد كان نشاطها من الشمال إلى الجنوب في تقهقر مستمر بينما كان نشاطها المعـــاكس ، أي من الجنوب إلى الشمال ، منقطع النظير ، وذلك بفضل « الذهب الأسود » ، فقد مر فيها في عام ١٩٥٥ لوحده ١١٥ مليون طن من الزيت .

وبعد ان كان النفط لايؤلف أكثر من ١٧ ٪ من حركة القنال قبل الحرب أصبح يمثل ٧٧ ٪ من حركتها في سنة ١٩٥٥ وذلك من الجنوب إلى الشمال ، أو ٢١ ٪ من انتاج نفط العالم .

وكان تزايد عدد ناقلات النفط التي تعبر القنال وتزايد أحجامها يطرح مشاكل معقدة . وكان يعبر القناة يومياً ٥٠ سفينة وكان ذلك يعتبر كحدأقصى لامكاناتها . كما أصبحت تعتبر صغيرة جداً بالنسبة لسفن البترول الضخمة اذ لم تكن تحتمل مرور ناقلات تزيد حمولتها عن ٣٨٠٠٠ طن لأن عمق الماء الباقي تحت قعرها لايزيد عن ٣٠ سنتمتراً فقط .

وأخذت أكبر ناقلة للنفط حينذاك وحمولتها ٥٢٠٠٠ طن ، وتخص شركة (إسو) ، تسلك طريق رأس الرجاء الصالح . وأوصت شركات البترول الاميركية في عام ١٩٥٦ على بناء ناقلتين في اليابان حمولتها ٨٠٠٠٠ طن بينما طلب اوناسيس الثري اليوناني الشهير ، من الترسانات البحرية اليابانية ، بناء عدة ناقلات حمولة كل منها ٥٤٠٠٠ طن وأخرى وزنها ١٠٠٠٠٠ طن . وأصبح مرور هذه الناقلات من طريق غير قناة السويس يوفر عليها مبلغ ٣ ليرات سورية عن كل طن .

ورغم التحسينات المتواضعة التي قامت بها الشركة ، فقد كتبت جريدة « بترولوم برس سرفيس » البريطانية في شهر حزيران ١٩٥٦ مقالاً اقترحت فيه حفر قناة ثانية محاذية لقنال السويس تسمح اولاً بزيادة سرعة المرور لأنها وحيدة الاتجاه ، وثانياً تسمح بتخصص القناة القائمة بالملاحة من الشمال للجنوب ، أي بمرور الناقلات الفارغة العائدة من موانىء اوروبا الغربية والتي لاتحتاج لعمق كبير بينما يمكنها ان تعود عن طريق القناة الجديدة الأكثر عمقاً .

تأميم القنال :

ان « شركة قناة السويس البحرية العالمية » ، التي كان امتيازها سينتهي امتيازها بتاريخ ١٧ تشرين الثاني ١٩٦٨ ، لم يكن من مصلحتها انفاق مبالغ ضخمة من أجل حفر قناة ثانية رغم ان امكانياتها تسمح لها بذلك بكل سهولة . وكان عقد الامتياز المؤرخ في ٣٠ تشرين الثاني عام ١٨٥٤ ينص على ان الامتياز سينتهي بعد ٩٩ عاماً ابتداء من يوم افتتاح قناة البحرين ، اي ٩٩ سنة بعد يوم ١٧ تشرين الثاني ١٨٦٩ . الذي فتح الطريق لأول مرة بالتاريخ امام ١٨ سفينة تمثل كل الدول البحرية في ذلك العصر .

وتنص المادة ١٠ من هذا العقد « عند انتهاء مدة العقد ستحتل الحكومة المصرية مكان الشركة ، وستتمتع تماماً بكل حقوقها وستمتلك قنال البحرين تماماً مع كل المؤسسات التابعة لها . وسينظم اتفاق حبي او بالتحكيم التعويض الذي يجب دفعه للشركة لقاء تخليها عن الاشياء المنقولة والادوات » .

اي ان الشركة يجب ان تعود لمصر بالمجان في حين تسترد هذه قيمة الموجودات . وقد سجلت الشركة في سجلاتها قيمة موجوداتها من « اثاث وابنية » بمبلغ ٢٠٠ مليون ليرة سورية .

لقد ارادت حكومة مصر ، بغية تطوير اقتصادها الوطني ، ان تبني السد العالي الذي سيوفر لها الطاقة الكهربائية الهائلة بالاضافة الى المياه اللازمة لري ٦٠٠٠٠٠ هكتار والتخلي نهائياً عن نظام ري الحياض في الوجه القبلي الذي كان يترك اراضي الصعيد معطلة خلال نصف العام . بيد ان الحكومة الاميركية التي وعدت بتقديم العون اللازم للقيام بهذا المشروع الهائل اشترطت شروطاً اعتبرتها الحكومة المصرية آنئذ مهينة وتمس سيادتها . وبعد مماطلات طويلة سحبت عرضها

فجأة . وحرصاً على الاستقلال الوطني الذي لم تحصل عليه مصر الا بشق الانفس والضحايا الكثيرة رأت الحكومة ان تؤمم قناة السويس كي تمول مشاريعها الكبرى من العائدات التي تربحها هذه الشركة الرأسمالية .

وقد تم ذلك في الخطاب الذي ألقاه الرئيس جمال عبد الناصر في مساء السادس والعشرين من تموز ١٩٥٦ . وعند القاء الخطاب الشهير كان عدد من الاداريين المصريين يقفون امام مكاتب شركة القنال بانتظار كلمة السر .

وأدى التأميم الى أن تتحمل الحكومة المصرية التزامات مالية ثقيلة . فقد تعهدت بالفعل بالتعويض على المساهمين على أساس سعر الأسهم بتاريخ ٢٦ تموز وهذا يمثل مبلغاً قدره ٦٥٠ مليون ليرة سورية .

ودعمت الصحف اليسارية في العالم موقف مصر . فقد كتبت جريدة الاومانيته بتاريخ ٣ آب ١٩٥٦ تقول : اذا كانت الحملة الهستيرية التي اطلقتها مجموعة الصحافة البورجوازية على اثر تأميم قناة السويس قد استحوذت عليكم فاطرحوا على انفسكم السؤال التالي : تصوروا ، قبل قرن مضى ، في ايام الامبراطورية الثانية ، ان مجموعة من الرأسماليين الانكليز اشتروا اسهماً في مناجم فحم الشمال ومنطقة بادوكالية ، وانهم ، منذ ذلك التاريخ ، أخذوا يستوفون ضرائب على كل طن من الوقود ، وان الحكومة الفرنسية رأت بعد ٩٠ عاماً ان هذا الوضع اصبح لا يطاق ، فاتخذت قراراً بتأميم مناجم فحمها ، ولكنها قبلت بتعويض حملة الاسهم حسب سعرها بالبورصة عشية التأميم . وتصوروا أن الحكومة البريطانية أخذت تجأر صارخة حين سماعها بهذا القرار قائلة : « ان هذا اغتصاب » او « انتهاك لحقوق الناس الخ » واخذت باستدعاء جيشها الاحتياطي واستعدت لارسال وحدات من بحريتها تجاه الساحل الفرنسي كي تحتل مناجم

فحم الشمال وبادوكالية عسكرياً . اذا حدث كل ذلك فما هي ارتكاساتكم يا ترى ؟ ان قضية قناة السويس لا تختلف عن ذلك مطلقاً .

ولكن مثل هذه الأصوات المنصفة الصادرة عن الصحف اليسارية، اوعن الشعوب والحكومات الآفرو آسيوية المنادية بالحياد الايجابي ،لم تستطع ان تقضي على صيحات الحرب التي اندلعت بهجوم مباغت في الخامس من تشرين الثاني ١٩٥٦ والذي اشتركت فيه فرنسا وانكلترا واسرائيل ، والذي توقف اثر اصرار مصر على موقفها واستماتتها في الدفاع ،وتأييد العالم العربي والعالم الحر لها .

وبنتيجة العدوان الثلاثي اصبحت القنــاة غير صالحة للاستعمال بسبب وجود حطام ٥٤ سفينة غارقة فيها. وقد كلف اصلاح القنال مبالغ طائلة، وتم في خلال عدة اشهر .

السلطة العربية تخلف الشركة !

لعل أهم عمل في قناة السويس هو عمل المرشدين الذين يقودون السفن من أول القناة حتى آخرها وبالعكس . ففي تموز ١٩٥٦ أعطى الرئيس عبدالناصر الرئيس الاول لهيئة القناة ، وهو المهندس محمود يونس ، مهلة ٦٠ يوماً فقط للبدء بادارة القناة ، وبدأ فعلاً رغم الصعوبات التي واجهها ، ورغم الافتقار الى الخبراء والفنيين والاختصاصيين . ومما زاد الطين بلة انه في ايلول من العام نفسه استقال ١٥٦ مرشداً اجنبياً وواجه محمود يونس قنــاة السويس مع ٢٦ مرشداً مصرياً و٧ مرشدين يونانيين فقط . الا ان كل مرشد كان يعمل ١٧ ساعة يومياً طوال أيام الاسبوع ، فاستمرت حركة القناة ومرّت الأزمة بسلام .

والمشكلة الثانية كانت مشاريع تحسين القناة لمواجهة سرعة تطور صناعة بناء السفن المذهل .

ففي كانون الثاني ١٩٥٨ أمر عبد الناصر بالبـــدء بأول شطر من الأعمال وذلك :

آ – بتطوير قطاعات مناطق تقاطع السفن .

ب – بجعل القنال صالحة لعبور سفن ذات غاطس قدره ٣٧ قدمـاً أي بوالي ١١٫٣ متراً .

ج – بتسهيل الملاحة في المنعطفات .

وقد استدعى ذلك نقل انقاض صخرية قدرها ٥٠ مليون متر مكعب .

وبدأ الشطر الثاني من المشروع الرامي للسماح لسفن غاطسها ٣٨ قدماً بالمرور في سنة ١٩٦١ ،وانجز فعلاً في آخر شباط ١٩٦٤ حيث امكن تعريض القناة بحوالي ٨٠ قدماً . وكانت خطة المهندس احمد مشهور مدير مؤسسة القناة ترمي لإرضاء مطالب ناقلات النفط وذلك بتعميق القنال حتى ٤٥ قدماً .

وهكذا اصبحت القنال التي لم تكن تسمح بمرور سفن تزيد حمولتها عن ٣٨٠٠٠ طن ان تستقبل سفناً تزيد حمولتها على ضعف هذا الرقم .

وفي سنة ١٩٦٦ كانت ادارة القناة تستخدم ٢٢٠ مرشداً منهم ٥٣ اجنبياً ينتسبون الى الجنسيـــات اليونانية واليوغوسلافية والبولونية والاسكنديناقية ، يعملون ١٢ ساعة باليوم لمواجهة تزايد عددالسفن الناتج عن الزيادة في تجارةالنفط والحرب في فيتنام وتزويد الهند الجائعة بالقمح . وتتراوح اجرة المرشد سنوياً بين ٢٠٠٠ جنيه استرليني و ٥٠٠٠ جنيه .

وتعرفت القناة الى ازدهار لا مثيل له ، فكتبت مجلة تايم الاميركية في عدد تموز ١٩٦٦ تقول بعد عشرة اعوام من تأميم القناة: « اثبت المصريون انهم اكثر مقدرة على ادارة القناة من شركة السويس السابقة . ففي عام ١٩٦٥ مثلا مر بها

٢٠٢٨٩ باخرة حمولتها ٣٤٦٨١٧٠٠٠ طن منها ٩٦٦٣ ناقلة نفط ، مما يجعل ميناء بورسعيد اول ميناء بالعالم من حيث نشاطه .»

وكانت معظم الارباح الناتجة عن القناة توظف في تحسين اوضاع الريف المصري والمناطق القريبة والقناة ، وبناء السد العالي . فمدينة الاسماعيلية الواقعة في منتصف الطريق بين بورسعيد والسويس ما زالت مركز ادارة هيئة القناة . وقد عملت ادارة الهيئة على حفر عدد من الترع وحسنت أقنية الري مما أدى الى اتساع رقعة الأرض المروية التي تكسوها الخضرة والمزروعات . واقامت الهيئة ايضاً مصنعين في الاسماعيلية لانتاج البلاط والمصابيح الكهربائية . كما اقامت مركزاً لبناء السفن على سواحل بحيرة التمساح قرب الاسماعيلية . وبنت مصنعاً آخر لصناعة الحبال في بورسعيد ومركزاً لبناء السفن ذات الحمولة ١٢٠٠٠ طن ومركزاً آخر في الاسكندرية . غير ان غالبية الأرباح كانت تذهب المساهمة في بناء السد العالي .

مستقبل القنال في خطر :

لقد ادت حرب حزيران ١٩٦٧ الى ايقاف هذا الاندفاع الذي عرفته قناة السويس وما رافق ذلك من كوارث لاتقل عن الكوارث التي نتجت عن العدوان الثلاثي في سنة ١٩٥٦ ، لأن قناة السويس لم تعد طريقاً مائياً عالمياً فحسب بل اصبحت سلاحاً سياسياً كثر الطامعون في انتزاعه من مصر او مشاركتها فيه على الاقل . وهكذا تعطلت الملاحة تماماً في القناة واصبحت ١٥ سفينة سجينة في البحيرة المرة . وتشترط حكومة الجمهورية العربية المتحدة لإعادة فتحها انسحاب القوات الاسرائيلية المرابطة على ضفتها الشرقية وفي شبه جزيرة سيناء لأن

وجود هذه القوات المعادية يعتبر خطراً جاثماً على امان هذا الطريق المائي وسلامته ولا يزال حل هذه المشكلة يتأرجح في المحافل الدولية .

ولكن حكومة الجمهورية العربية المتحدة لم تغفل عن مشاريعها الرامية لتحسين هذا الطريق الفريد من نوعه بالعالم . ففي مطلع سنة ١٩٦٨ خصصت لمتابعة مشاريع التحسين مبلغاً « روتينياً » قدره ١٦٫٥ مليون جنيه استرليني منها ١٢ مليوناً مخصصة لأعمال التعميق الرامية لجعل القناة مستعدة لاستقبال سفن ذات غاطس مقداره ٤٨ قدماً او اكثر من ١٤ متراً . وتسعى هيئة ادارة القناة الى متابعة اعمال التحديث Modernisation الاخرى في بور سعيد وبور توفيق . كما عملت حكومة الجمهورية العربية المتحدة على بناء خط انابيب بين موقع يقع الى الجنوب من السويس والاسكندرية لمساعدة القناة في نقل البترول . وقد صرح وزير الصناعة والمناجم والنفط السيد عزيز صدقي في نيسان ١٩٦٨ ان لهذا المشروع مايبرره نظراً لأن البترول سينقل اكثر فاكثر بواسطة ناقلات جبارة لاتستطيع القناة ان تستوعبها بالرغم من ان مشاريع الهيئة كانت ترمي في سنة ١٩٧٠ لجعل القناة قادرة على تحمل سفن طولها ١٠٠٠ قدم وغاطسها ٤٠ قدماً اي ناقلات تبلغ حمولتها ١٢٠٠٠٠ طن . وكان هذا المشروع سيكلف حكومة الجمهورية العربية المتحدة ٨٠ مليون جنيه استرليني ، وكانت تبحث عن مصادر لتمويل هذا المشروع الذي يكاد يضاهي بأهميته مشروع السد العالي ذاته .

وعلى كل حال ، مازال هناك خطر جدي يهدد القناة بضياع القسم الأعظم من عائداتها ، وهو الخطر الناتج عن السفن الناقلة للنفط باتجاه دول اوروبا الغربية . فقد اخذت شركات النقل تحذو حذو اليابان ، التي كانت رائدة في هذا المضمار ، وذلك ببناء ناقلات ذات حمولة ضخمة لا يكلفهـــا الدوران حول قارة افريقيا

والمرور من رأس الرجاء الصالح أكثر من المرور بطريق القناة بل سيحقق لها وفراً بالنفقات ايضاً . ويقدر الخبراء أن أكثر من ٦٠ ناقلة جبارة ، حمولة كل منها أكثر من ٢٠٠٠٠٠ طن ، ستكون متوفرة في عام ١٩٧٠ فضلاً عن بناء ناقلات تزيد حمولتها عن ٤٠٠ ألف طن في بريطانيا .

وشدة ضخامة هذه البواخر سيعرض مستقبل القناة للخطر لان ٧٠ ٪ من عائداتها تتألف من الرسوم التي تتقاضاها من ناقلات النفط التي تجتازها . ولا تكون المشكلة خطيرة بالنسبة لسفن الركاب ولكن عدد هذه في تناقص ، وستستمر سفن الشحن في المستقبل باستخدام القناة الا اذا أصبحت الرسوم مرتفعة لدرجة تجعلها تفكر في سلوك طريق أكثر طولاً . وتأمل شركات النقل العالمية أن يكون مستقبل القناة داعياً للاطمئنان لان التجارة البحرية العالمية لاتستطيع أن تتابع عملها في حرية مرور ذات انقطاعات دورية .

أدب المقاومة

شحادة الخوري

منـــذ الف عام تقريباً ، وشعبنا العربي يقاوم الغزاة الطامعين في ارضه ، ويـذود عنها بصبر وعناد ، ويـدفع عنها المعتدين بهمة لا تفتر وعزيمة لا تلين .

ولسنا نغـالي اذا قلنا ان مقاومة العـدوان والاحتلال والظلم هي السمة المميزة لتاريخنا طيلة هـذه الحقبة من الزمن ، ولا سيا للقرن الاخير الذي ندعوه عصر النهضة الحديثة .

مسيرة طويلة شاقة ورائعة في آن واحد ، مضت فيهـا امتنا العربية تحث الخطا منذ القدم حتى اليوم ، من الجاهلية الى النصف الثاني من القرن العشرين ، مسيرة امتزجت فيها الافراح بالاتراح ، والتقت البسمات بالعبرات والانتصارات بالنكسات .. الا انها اكدت ان انساننا العربي انسان يتحدى اسباب الموت والفناء ويصمد للخطوب والارزاء ويزرع الارض بالابــداع والخلق والبناء .

لقد صاغ العرب في الجاهلية اقوالهم بياناً مشرقاً وبلاغة ساحرة ، وسمت اخلاقهم نبلاً وشهامة وعطاء . وفي فجر الاسلام حملوا ألوية الحق ومبادىء الخير الى مشارق الارض ومغاربها ثم ما لبثوا أن انشؤوا دولة وطيدة الاركان سامقة البنيان واغنوا المعرفـــة البشرية بمعارفهم وأمدوا الحضارة الانسانية بفيض من عبقريتهم فكان لهم في سجل التاريخ مآثر باقيات وصفحات مشرقات .

وما ان دبت في دولتهم اسباب الفرقة والضعف حتى طمع بهم من حولهم وتسلل الى مواقع السلطة لديهم اعاجم غرباء فعانوا شر التمزق وانحطت احوال معيشتهم وخبت فيهم نزعات الطموح والتجديد والابتكار .

واذ ذاك تعرض شعبنا العربي الى هجمات شرسة ثلاث خـــلال فترات متعاقبة : هجمة الاوربيين بقيادة رجال الاقطاع الذين شنوا على بلادنا العربية حروباً متتالية عرفت بالحروب الصليبية وامتدت حوالي قرنين من الزمن : (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) ، وهجمة التتر المغول في منتصف القرن الثالث عشر ، تلك الهجمة الجامحة المدمرة .

وبعد فترة مظلمة امتدت اربعة قرون من الاحتلال العثماني ، عانى فيها شعبنا ما عانى من صنوف الاضطهاد والاذلال ، تعرض للهجمة الثالثة بـدءاً من النصف الاول من القرن التاسع عشر ، هذه الهجمة المتمثلة بالاستعمار والصهيونية والتي ما نزال نشهد احداثها ونقاسي وطأتها ونصنع انحسارها وزوالها .

ولعل الغزوة الاخيرة هي اشد الغزوات التي واجهتها أمتنا العربيـة في تاريخها الطويل خطراً لأسباب منها انها فاجأت العرب وهم مـا يزالون يرزحون تحت وطأة الاحتلال العثماني بكل ما اتصف به من استبداد وتعسف ونهب وما جر على بلادنا من تخلف وفقر وجهل فلم تتوفر لهم اسباب القوة لقهره ودفعه عنهم ،

وانها اعتمدت وما زالت تعتمد على قوى الاستعمار القديم والاستعمار الحديث – الامبريالية – والصهيونية العالمية متضافرة متآزرة لحماية اسواقها واستثماراتها واحتكاراتها وقواعدها العسكرية في هذه المنطقة الغنية الشاسعة وأنها استخدمت لترسيخ اقدامها وما زالت مبتكرات العلم من ادوات القتل والدمار ، واستغلت وما زالت تستغل مواطن الضعف فينا من نزعات اقليمية وامتيازات طبقية وأفكار رجعية وميول فردية انانية، وأنها اتخذت اشكالاً مختلفة للخداع والتضليل من احتلال وحماية وانتداب، وشرها ذلك الشكل الاستيطاني الذي تمثل بما سمي دولة اسرائيل .

ولكن قبالة هذا كله وازاء هذا الهجوم الجائح والتحدي الصارخ يستيقظ شعبنا العربي من سباته وينهض من كبوته نهضة مارد جبار وينطلق من اساره انطلاقة اعصار ، ويهب بملايينه ليسد الطريق في وجه الغزاة ويجهد ما استطاع ليصنع وحدته وحريته ويشيد مجتمعه الجديد – مجتمع الاشتراكية ، مجتمع التقدم والعدالة الانسانية .

ومثلما وقف شعبنا بالامس في الغوطة وهوراس وبور سعيد وبغداد وقفة تحد وصمود وبطولة ، يقف اليوم فدائيو فلسطين العربية الحبيبة في نجودها وسهولها وأغوارها وقفة تحد وصمود وبطولة تحدوهم ، ازاء الحديد والنار ، ارادة لا تقهر ، ارادة البقاء ، ارادة النصر ، وكأن مواكب جيلنا تسير على حداء الشاعر :

اطلوا كما انقد الكوكب ينوّر ما أظلم الغيهب
وسيروا وان بعدت غاية وشقوا الطريق ولا تتعبوا
طريقكم موعر شائك بشتى المخاطر مستصعب

ولا تحسبوا أن مستعمراً يثار عليه ولا يغضب
ولا تحسبوا الارض يهنا بها ذووها وبالدّم لا تخضب

واذا كانت المقاومة ، من حيث المبدأ ، تستمد نسغها وشرعيتها من الحياة نفسها ، من ارادة البقاء والوجود ونزعة الاستمرار والخلود الاصيلتين في النفس الانسانية ، فان المقاومة العربية فوق ذلك ، مقاومة واعية تستهدف حماية الامة من الاندثار ولم شعثها بعد التفرق والحفاظ على تراثها المادي والفكري الذي جهد الاولون اجيالاً عديدة في صنعه وبنائه ، وتستشرف المستقبل لتصوغه على صورة تحقق آمالها وامانيها مستقبلا تكون فيه وحدة متناسقة ومجتمعاً نشيطاً متطوراً بناء وخلية حية من خلايا الانسانية ، انها مقاومة لا تبغي ولا تجور ، لا يعتريها زلل او يشوبها تعصب ،بل تسلك الى الحق مسلكها بلا ريث ودون هوادة .

وفي العصر الذي نبغي الحديث عنه ، في هذا القرن الاخير الذي حفل بالمقاومة العربية الباسلة، لم تكن اداة القتال السلاح وحده بل كان للكلمة ، الكلمة الصادقة ، دور ايضاً ،بل دور رائد فعال . ففي خضمّ الكفاح والنضال المريرين ارتفعت اصوات العديد من الادباء من شعراء و كتاب مجلجلة مدوية لا يخفتها ارهاب او طغيان لأنها نابعة من ضمير الشعب ، من وجدان الامـــة ... من الاصداء الحية لما يعصف بالنفوس من مشاعر عميقة وما تخفق به القلوب من عواطف صادقة ، ذلكم هو ادب المقاومة .

ولنتساءل الآن عن المراحل الكبرى والاحداث الهامة في تاريخنا الحديث وتأثيرها في عالم الادب ، وان كنت سأقتصر على الشعر دون النثر لضيق المقام . دخلت بلادنا العربية منذ الربع الاول للقرن السادس عشر في حوزة العثمانيين الذين بسطوا سلطانهم شرقاً وغرباً وأسسوا امبراطورية واسعة الارجاء . وكان

الحكم عامة يقوم على الاستبداد والافقار والتجهيل وتسود فيه الرشوة والتعصب والاثرة ...

وفي اوائل القرن التاسع عشر فتحت نافذة السجن الكبير وانطلقت مصر في طريق النهضة الاقتصادية والعلمية والعسكرية .

وقد عبرت حملة ابراهيم باشا الى سورية عن رغبة العرب في التحرر وتشوقهم الى الوحدة القومية . اما لبنان فقد حاز على استقلاله الذاتي اثر الحوادث الدامية في منتصف القرن الماضي .

وفي ذلك القرن نفسه نشطت الدول الاوروبية للاستعمار ، بعد نمو الصناعة ونشوء الشركات فراحت تلك الدول تبسط سيطرتها الاقتصادية والسياسية على اقطار آسيا وافريقيا لجعلها منبعاً غزيراً للمواد الأولية وسوقاً تجارية لتصريف منتجاتها . واستولى الفرنسيون على بلدان المغرب العربي ، وبسط الانكليز سيادتهم على مصر ، والطليان على طرابلس الغرب .

وبقيت الاقطار التي كانت تابعة للسلطة العثمانية راسفة في الأغلال .

وكان العرب يعقدون ، في بادىء الأمر ، على الاصلاح الدستوري آمالاً عريضة . ولكنهم عندما خاب ظنهم بجمعية الاتحاد والترقي ادركوا ان السبيل الوحيد لتحرير وطنهم إنما هو تنظيم صفوفهم والاعتماد على انفسهم وبعث الوعي في جمهور العرب . فعمدوا الى تأسيس النوادي والجمعيات الوطنية وعقدوا مؤتمراً في باريس عام ١٩١٣ قرر المطالبة بالادارة اللامركزية واعتبار اللغة العربية لغة رسمية في المحاكم والمدارس ، ولكن سرعان ما نشبت الحرب العالمية الأولى واتجهت الأحداث وجهة جديدة .

ان الأحداث التي أتينا على ذكرها كانت ذات أثر قوي في عالم الأدب ، ولكن على الرغم من خطرها وجد من يجرد قلمه للذود عن أرباب السلطة طلباً السلامة او جراً لمغنم . ولكن الفريق الأكبر دعا الى النهوض بالأمة ، وهؤلاء انقسموا الى فئتين : احداهما كانت تؤمل بالاصلاح الدستوري وتأمين الحريات وتحقيق التقدم والرقي مع الحفاظ على الدولة التي تمثل كياناً شرقياً اسلامياً والثانية كانت يائسة من الاصلاح فدعت الى انفصال العرب عن جسم الدولة العثمانية بدافع الشعور القومي الحر .

ومن الذين ظلوا أوفياء للعرش النديم وصبري والشدياق وناصيف اليازجي .
قال الشدياق يمدح الدولة العلية :

للدولة العليا علا ومــآثر   يشدو بها يوم الفخار الأثر
سر حيث شئت من البلاد فلا ترى   إلا النعيم وما اشتهاه الناظر

وقال الشيخ ناصيف اليازجي مؤيداً لحق السلطان الالهي :

خليفـــة الله ظلّ في خليقته   ظلت به تتقي الدنيا وتستتر
اذا طلبنا من الباري لنا وطرا   فليس إلا بقـــاه عندنا وطر

أما شوقي ، أمير الشعراء ، فقد كان في تلك المرحلة ، اكثر الشعراء « عثمانية » وصاغ المدائح لأرباب التيجان من عثمان وذلك في امثـــال قصائده : صدى الحرب ، وتحية الترك ، وضيف أمير المؤمنين ، والاسطول العثماني .

أما دعاة الاصلاح المعتدلون فكانوا يريدون الابقاء على وحدة الدولة لانها تجمع سائر الشرقيين وتشكل وحدة اسلامية جامعة ، ولكنهم قاوموا بشدة حكم الفرد وسياسة الاستبداد . وينتظم في هذه الفئة ولي الدين يكن وفرح انطون واديب اسحق .

قال ولي الدين يكن منددآ بالادارة الحميدية القائمـــة على التعسف والظلم :

يبـكي بنوك ويضحك الزمن ... مـــاذا أصابك أيها الوطن
ماأوشـــكت ان تنتهي محن ... إلا وجاءت بعدهـــا محن

وأما الفئة الثالثة فقدوقف أدباؤها يسددون الى سياسة الاستبداد نقداً جارحاً ولا يرون في هذه الدولة خيراً أي خير . وفي هذه الفئة اشتهر الرصـــافي والزهاوي وسركيس ومراش وحداد والكواكبي وابراهيم اليازجي .

ولنسمع الى الرصافي يقول في قصيدة عنوانها « تنبيه النيام » :

عجبت لقوم يخضعون لدولة ... يسوسهم في الموبقات عميدها
وأعجب من ذا انهم يرهبونها ... وأموالها منهم ومنهم جنودها

ويرتفع صوت الزهـــاوي نقياً صافياً ، فلا أمل لديه في اصلاح ماشابه الفساد :

تؤمل إصلاحا وترجو سعادة ... الا باطل ماترتجي وتؤمل
وما هي الا دولة همجية ... تسوس بما يقضي هواها وتعمل

أما الشيخ ابراهيم اليازجي فقـــد كان خير مفصح عن خواطر العرب ومشاعرهم في عصره ، بل كان شاعر القومية العربية الرائد . قال في قصيدة مشهورة :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب ... فقدطمى السيل حتى غاصت الركب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم ... تستغضبون فلا يبدو لكم غضب
فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا ... من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

وبعثت ثورة ١٩٠٨ الفرحة في النفوس ، وألقت على الأدب مسحة من التفاؤل، ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، إذ ما تسلم الاتحاديون الحكم حتى سلكوا سياسة عنصرية غاشمة فخابت الظنون وتلاشت الأحلام .

وينادي الشيخ سليمان الفاروقي بالنهضة العربية ودك قلعة الاستعباد وحق الشعب في العدالة والمساواة :

ألا نهضة شرقية عربيـــة　　تزلزل اقواماوتوهي رواسيا
وتقضي على كل امتياز واثرة　　ويصبح كل الناس فيها سواسيا

وتندلع نار الحرب العالمية الأولى ويعاني العرب وطأتها ، يقتل ابناؤهم بحد السيف حيناً وحد الجوع حيناً آخر في جبهات القتال. ويشنق السفاح جمال باشا احرارهم في دمشق وبيروت ، وتنشب الثورة العربية وتتقدم الى بلاد الشام .

وكان لكل ذلك صداه في دنيا الأدب . ولم يكن الأدب آلة تسجيل تصور الوقائع للذكرى بل كان تعبيراً عن موقف ، عن فكر وإرادة وعاطفة. كان أثراً ومؤثراً ،وكان انفعالاً وفعالية في آن واحد .ورب قصيدة عملت في مجابهة العدو اكثر من كتيبة ، وكلمة صادقة كانت أشد عليه من رصاص يصوب اليه ، وان الكلام الذي ينبع من القلب ، لينصب في القلب . لقد كان أدباؤنا في عصر الظلام ، ظلام الحكم الحميدي وما سبقه وما تلاه ، طليعة رائدة أيقظت العقول وأشعلت في النفوس حب الحرية والاستهانة بالموت في سبيلها .

ولئن شذ من الأدباء نفر كانوا عوناً للسلطان يغمضون العين عن جوره ويسدون آذانهم عن مطالب الشعب وأمانيه، فهم قلة تستحق الرثاء اكثر مما تستحق النقمة. وماذا عسانا نقول في شاعر يدعى بدر الدين النعساني يمتدح السفاح جمال باشا بقوله

لقد عز جيش كنت فيه رئيسه وعزت جموع كنت فيهن رائدا
وقفت على علياك فيض يراعتي ونفسي ونكوني والقوافي الشواردا

وكان شنق الاحرار فاجعة مؤلمة ادمت القلوب وعلمت العرب ان خلاصهم في الاتحاد والمقاومة ، قال الزهاوي راثيا متحديا :

على كل عود صاحب وخليل وفي كل بيت أنة وعويل
قبور ببيروت وأخرى بجلق تجر عليها للرياح ذيول
تريد لمجد العرب فيما أتيته زوالا ومجد العرب ليس يزول

وتتردد فيما وراء البحار اصداء المعركة وتثور النفوس لمقتل الشهداء، وتنفث العبقريات شعرا من لهب العاطفة ودفقة الاحساس .قال الشاعر القروي:

فلتنحن الهام اجلالا وتكرمة لكل حر عن الاوطان مات فدى
اكرم بحبل غدا للعرب رابطة وعقدة وحدت للعرب معتقدا

وانتصرت الثورة العربية ،وغدا الحلم المنشود حقيقة واقعة . ولكن الامر لم يطل،اذ تنكر الحلفاء للعرب وخانوا العهد ونكثوا الوعد وحركتهم المطامع، فاندفعوا الى الاستعمار الاحمق الشره وراحوا يطبقون معاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور المشؤوم ، فبسط الاستعمار الانكليزي ظله الاسود على العراق وفلسطين والاردن ، والاستعمار الفرنسي على سورية ولبنان .

وشارك الأدب فيما عرض للامة من احداث جسام ، قال الزهاوي :

وخانوا لم يفوا بعد انتصار بما كتبوه في بطن الصكوك

وفي ميسلون انتصر الحديد على الحق والنار على العدل،وسقط المئات من الشهداء،وهكذا عمدت سورية حريتها بالدم القاني في وقفتها المشرقة وقالت للاستعمار لا ، لا مقر لك في ديارنا .

قال خير الدين الزركلي :

غلت المواجل فاستشاطت أمة ... عربية غضبا وثار رقود
زحفت تذود عن الديار ومالها ... من قوة فعجبت كيف تذود
الطائرات محومات فوقها ... والزاحفات صراعهن شديد
ولقد شهدت جموعها وثابة ... لو كان يدفع بالصدور حديد

وبعد ميسلون مرت خمس وعشرون سنة لم تعرف فيها بلادنا الهدوء والطمأنينة، فمن تمرد حوران الى ثورة صالح العلي الى ثورة ابراهيم هنانو ، الى الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ التي سجل فيها الثوار بطولات لا تنسى .

أما في مصر التي احتلها الانكليز عام ١٨٨٢ فكان مصطفى كامل شعلة اضاءت بالامل النفوس اليائسة ، وبعد الحرب الاولى تزعم الحركة الوطنية سعد زغلول وما اعتقل حتى اشعل الشعب الثورة ، وفي الحرب العالمية الثانية ساعدت مصر الحلفاء ولكنها لم تحصل على استقلالها الكامل الا بعد ثورة ١٩٥٢ . واما العراق فان حكم الانكليز وعملائهم كان سدا منيعا في وجه الشعب وظلمة حالكة لا ينفذ اليها قبس من نور .

ولم يبق الادب في معزل عن هذه الاحداث الهامة التي عصفت ببلادنا ، بل كان في الميدان يثير الهمم ويشد العزائم ويدعو الى المقاومة والصمود .

يقول عمر ابو ريشة :

كم مشينا على الخطوب كراما ... والردى حاسر النواجذ فاغر
والزغاريد في شفاه الغواني ... تدفع الحر لاقتحام المخاطر
وبقايا آثارنا شاهدات ... لو سألتم في ميسلون المقابر

ويصف خير الدين الزركلي كفاح سورية ويندد بوحشية الاستعمار الفرنسي:

والنـــار محدقة بجلق بعدما تركت حماة على شفير هار
تنساب في الاحياء مسرعة الخطا تأتي عـــلى الاثار والاعمار

أما احمد شوقي – وقد جنح في هذه المرحلة الى الشعر الوطني والقومي بعد ان صقلته التجارب والمحن وعذبه النفي عن الوطن وقضى من منحهم وده وولاءه – فقد قال في الثورة السورية قصيدته المشهورة :

سلام مـن صبا بردى ارق ودمع لا يكفكف يـــا دمشق

ومنها قوله :

وللمستعمرين وان ألانوا قلوب كالحجـــارة لا ترق
ففي القتلى لاجيـــال حياة وفي الاسرى فدى لهم وعتق
وللحريـــة الحمراء باب بكل يـد مضرجـــة يدق

اما في مصر فيراوغ الانكليز ويبطشون بالاحرار، وخاب ظن من احسن بهم الظن . قال شوقي منددا بفظائعهم واكاذيبهم :

اليوم اخلفت الوعود حكومة كنـــا نظن وعودها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه مصرا فكانت كالسلال دخـولا
هدمت معالمها وهدت ركنهـا واضاعت استقلالها المأمـــولا

وتتحرك مصر وتقاوم حكم الاستعمار ، ويشارك الشعب كله في المقاومة، ويعجب حافظ ابراهيم بظاهرة نسائية تصدى لها جند الانكليز بجرائمهم :

واذا الجنـود سيوفهـــا قـــد صوبت لنحورهـن
فليهنـــأ الجيش الفخو ر بنصره وبكسرهـــن

وينتقد خليل مطران الحكام الموالين للاستعمار الذين ضيقوا على الحريات خوفا على نفوذهم ونكلوا بالوطنيين ارضاء لسادتهم ، قال يخاطبهم :

شردوا اخيارها بحرا وبرا — واقتلوا احرارها حرا فحرا
كسروا الاقلام هل تكسيرها — يمنع الايدي ان تنقش صخرا
قطعوا الايدي هل تقطيعها — يمنع الاعين ان تنظر شزرا
اخمدوا الانفاس ، هذا جهدكم — وبه منجاتنا منكم . . . فشكرا

اما العراق فالحديث عنه ذو شجون ، الشعب في واد ، والحكام في واد آخر . ولعل الرصافي في اياته التالية يعطينا عنه صورة مجملة صادقة :

من اين يرجى للعراق تقدم — وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عنـ — ـد جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عنـ — ـد غريبه والحكم عند دخيله

وتندلع الحرب العالمية الثانية التي شنتها القوى الفاشية الضارية الحاقدة فأغرقت العالم في بحر من الدموع والدماء . وتزاحمت بعدها الاحداث واشتد نضال العرب في سبيل السيادة والاستقلال ، واغتنى كفاحهم بأفكار جديدة واصبحت الحرية قضية الجماهير الواسعة لا قضية افراد او جماعات .

ولعل اهم الاحداث فيما بعد الحرب ، ثورة الجزائر الباسلة والكفاح لتحرير فلسطين العربية من الاستعمار والصهيونية .

لقد زعمت فرنسا مفترية ان الجزائر ارض فرنسية ، تكملة لها وامتداد في الطرف الاخر من البحر المتوسط وصدقت او حاولت ان تصدق ما زعمت وافترت ، وسوغت لنفسها ان تقطع المعمرين من ابنائها المناطق الخصبة الغنية في الساحل والداخل ، ولم تبق لاهل الجزائر سوى الارض الجبلية او الصحراوية

القاحلة . اما ملامح القرن العشرين من تطوير الزراعات وانشاء الصناعات ونشر المعارف والعلوم والفنون ورفع الانسان العامل الى مستوى حيـــاة افضل فلم تدخل في خطط المستعمرين وحساباتهم .

فلم يكن عجبا والحال هذه أن تنفجر الثورة بل العجب الا تنفجر . ولم يكن الهدوء الذي سبقها الا مثل السكون الذي يسبق العاصفة . صور ذلك الشابي شاعر العرب في المغرب :

رويدك لايخدعنك الربيع وصحو الفضاء وضوء الصباح

ففي الافق الرحب هول الظلا م وقصف الرعود وعصف الرياح

ولكن الاستعمار اصم لا يسمع صوت الشعوب الطامحة الى الحرية ، المتطلعة الى النور ، المتشوقة الى حطم قيودها والسير في دروب التحرر والتقدم لانه بطبيعته عدو الشعوب كلها ــ ولا يستطيع الا ان يكون كذلك ــ لا يعيش الا من عذاباتها ولا يرتوي الا من دموعها ودمائها .

العبودية ، التعسف ، الفقر ، كل ذلك حمل الشعب الجزائري على الثورة. حملا فلم يتردد وهب ماردا جبارا وهو يزمجر :

حتام افترش الحصـــير
واسكن الكوخ الحقـير
وأساهر الحرمان والألم المرير
وتلوك جنبي الخشونة
ويحيطني قبو العفونة
كالآلة الخرساء اعمل مرهقا
بدراهم وشتائم

لاغاية تدنو ولا امل طليق

دنيا من الحرمان والدم والشهيق

ويرتفع لهيب الثورة ويمتد ، في جبال الموراس ، في الساحل ، في الواحات ، في الصحارى ، في احياء المدن ، في كل مكان ، ثورة اسطورية ماعرف التاريخ لها مثيلا ، هي الحد الفاصل بين البقاء والفناء ، بين الانسان الذي وجد ليحيا ويعمل ويغني ويحب ... وبين وحش الاستعمار الذي يستمد غذاءه من خيرات الشعوب وثمرات كدها وعرق جباهها !

وقد عبّر الشاعر الجزائري ابو القاسم سعد الله عن اصرار الشعب على القتال حتى النصر :

لن يجف الجرح أو يلتئم

جرحنا القاني الذي يحتدم

أبداً تنهال منه الحمم

انه نار وريح ... ودم

وهيهات ان تحصى القصائد والآثار الادبية التي خطتها اقلام الشعراء والكتاب في ثورة الجزائر من جزائريين وعرب وأجانب . لقد حركت هذه الملحمة البطولية –ثورة المليون شهيد- كل ضمير . وقفت معها قوى الانسانية جمعاء المؤمنة بالانسان ، بالحياة ، بالتقدم ، ووقفت ضدها كل قوى البغي والاستعمار والبطش والموت . وهل يرقى الكلام –مهما جودت صياغته وصدقت معانيه– الى مستوى اعمال الفداء والتضحية في ثورة الجزائر التي غدت مضرب الامثال ؟ اسمعوا ماقال اذن الشاعر سليمان العيسى:

أأناجي ثوارها ودويّ النار أبياتهم وعصف الخاطر

ماعساني اقول والشاعر الرشاش والمدفع الخطيب الهادر
فوق شعري وفوق معجزة الالحان هذا الذي تخط الجزائر

ومن اجل هذا ، ومن وحي البطولات ، اسمعنا الشعراء اغنيات خالدات هي اكاليل غار على مفارق الابطال الاشاوس الذين كسروا انياب الذئب ومزقوه اشلاء على صخرة الصمود والمقاومة ، يغنينا احمد سليمان الاحمد :

لك يا غاب الاسنه
زارعات النجوم الحمر أحشاء الدجنة
بالجراح
لك عن هذي الملايين اغني للصباح
لك يا أرض البطولات الخصيبة
والخضيبة
أنسج اللحن بلون الفرح
بعدما أشرب وجه الشمس وهج الجرح

وما احلى ان ينسج اللحن بلون الفرح بعد جهد و كفاح ، وما اجمل الوية النصر تخفق بعد نضال طويل ... أما قضية فلسطين فهي قضية العرب الكبرى في هذا العصر ، القضية التي كانت وما تزال مدار تفكيرهم وسعيهم ومحور خططهم وسياستهم ، وهي ستبقى قبلة انظارهم ومحط آمالهم حتى يزول الظلم وينحسر العدوان ويرجع الحق الى أهله .

لقد ابتلاها الاستعمار بنكبتين معاً : الانتداب والصهيونية . ولكم اورث وعد بلفور الجائر النفوس أسى وخيبة رجاء . وهل يهب احد ارضاً لايملكها ، لمن لاحق له فيها لتكون له وطناً بعد سلبها عنوة واقتداراً ممن عمروها بلا

منازع ثلاثة عشر قرناً . ولئن كان ذلك محالاً في منطق البشر جميعاً فهو في رأي الاستعمار البريطاني ممكن وجائز .

وهل يستطيع الشاعر القروي سكوتاً على هذا الوعد الغاشم :

تعد الوعود وتقتضي انجازها   مهج العباد، خسئت يا مستعمر
لو كنت من أهل المكارم لم تكن   من جيب غيرك محسناً يا بلفور
عد من تشاء بما تشاء فانما   دعواك خاسرة ووعدك أخسر

ويدور صراع رهيب مديد ابتدأ ولما ينته ، بين القاطنين والقادمين ، المالكين والغاصبين ، الآمنين والمعتدين ... صراع غير متكافىء : العرب لم يستنشقوا بعد نسمات الحرية بعد قرون طويلة من الاحتلال العثماني البغيض ، وليس في ايديهم مال به يستعينون ولا سلاح به يحتمون ، والصهاينة استقدموا افواجاً من أقطار الغرب ليقيموا للغرب قاعدة ومرتكزاً عندهم مال وفر وسلاح فتاك ، ويحمي ظهرهم استعمار طامع شرس بجيوشه وأساطيله وسلطانه ... وانها لمعارك دامية تثير في نفوس الشعراء احاسيس لاهبة . يقول الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري :

فيا فلسطين ان نعدك زاهرة   فلست اول حق غيلة هضما
سور من الوحدة الصماء راعهم   فاستحدثوا ثغرة جوفاء فانثلما

ويثير الكفاح العربي حمية الشاعر اللبناني الأخطل الصغير فيغنيه حداء مؤثراً يعطي برهاناً جديداً على ان للشاعر مكاناً في المعركة :

ياجهاداً صفق المجد له   لبس العار عليه الارجوانا
شرف باهت فلسطين به   وبناء بالمعالي لايدانى
ان جرحاً سال من جبهتنا   لثمته بخشوع شفتانا

ورسم الشاعر أبو ريشة لوحة ، هي غاية في الابداع الفني ، تمثـــل ذلك الصراع القائم بين العرب الذين سلط عليهم الاستعمار اضطهاده وبين الصهاينة الذين بسط لهم من حمايته اكثر مما يطلبون :

قف على تربة المسيح وشاهد مصرع المجد فوق ظهر الرمال
عاش فيها المشردون رضيعو لبن الذل في مهود الضـــلال
نكد الدهر ان ينال جبان من جسور مشدّد الاغلال

ويعصف الاسى بالشاعر عيسى الناعوري ويتساءل اين الشعب العربي بملايينه السبعين يثور للكرامة ويزيل العار ويستعيد الكرامة الجريح :

أين الشعوب تهب بعد هوانها لكرامة هدرت بغير حياء
فتزيل هذا العار عن تاريخها في ثورة في حقدها شعواء
سبعون مليوناً ، أحقاً أننا سبعون مليونا من الاحياء؟

لعل الألم الذي أحسه الشاعر قد حمله على هذا اليأس . ولكننا نعلم ان القوة العربية في ذلك الحين كانت حبيسة الجهل والفقر والانظمة الرجعية العميلة ، والملوك والرؤساء دمى تحركها السفارات والشركات .. ولنسمع ابا سلمى عبد الكريم الكرمي يكشف عنهم القناع :

ايه ملوك العرب لاكنتم ملوكاً في الوجود
قوموا اسمعوا من كل ناحية يصيح دم الشهيد
قوموا انظروا الوطن الذبيح من الوريد الى الوريد

وكان الشعر أبداً يواكب حركة النضال ضد المستعمرين ويؤججهـــا ويمنحها دفقة عزيمة وفيض قوة . يعجب الشاعر ابراهيم طوقان بفدائي يكمن لبريطاني صهيوني ظالم ويطلق عليه النار ، فينشد فيه قصيدة من غرر الشعر :

لاتسل عن سلامتـه | روحه فوق راحته
بدلتـــه همومـــه | كفناً من وسادتـه
هو بالبـــاب واقف | والردى منه خائف
فـاهدئي ياعواصف | خجلا من جراءته

بالروعة الشعر اذا قدّ من عصب ، ونسج من شعور ، وكانت اصباغه صدقاً ناصعاً وحقاً مبيناً .

وكانت النكبة الفاجعة عام ١٩٤٨، وشرد شعب كامل من وطنـــه في الآفاق ونصبت هنا وهناك خيام . وكانت قبية ودير ياسين ، وتكشف الصهاينة عن برابرة نازيين حملوا احقادهم من حيث أتو ليزرعوها شوكا وعوسجاً في أرض فلسطين وهانوا في انفسهم فكانوا مطية ذلولا لطغاة الرأسماليـــة والاستعمار في في انكلترا وامريكا ودول حلف الاطلنطي الذين استهدفوا أن يعوقوا بواسطتهم نهضة العرب ويعطلوا مسيرتهم الى التقدم والرقي ويحولوا دون وحدة تجمع شتاتهم وتقوي بنيانهم باقامة حاجز بين اقطارهم يشغلهم ويضعفهم ويهدهم ويستنزف مواردهم وطاقاتهم .

وشاعت المرارة في النفوس ، فأين الوطن الضائع والعز الغابر ، أين الدار والجار والندوة والسهر . يقول ابو سلمى في حسرة :

علينا من لظى التشريد والأدمع آثار
وقد كانت لنـــا دنيا وكان المجد والغار
ونحن اليوم لاوطن ولاأهـــل ولا دار

وتهز المأساة الشاعرة فدوى طوقان ، ويؤلمها ان يصبح صاحب الدار

لاجئاً ولكنها تمسك بخيط الأمل ، وتنادي بالعودة ، العودة إلى ارض الآباء والاجداد ، وموطن الذكريات والاحلام :

أتغصب أرضي ؟ أيسلب حقي ؟ وأبقى أنا
حليف التشرد اصحب ذلة عاري هنا

سأرجع مها بدت محنتي وقصة عاري بغير نهاية
سأرجع لابد من عودتي وأنهي بنفسي هذي الرواية

ويأتي عام ١٩٥٦ ثم يليه عام ١٩٦٧ ،فاذا اسرائيل تثبت انها ما ابتدعت الا للعدوان وأنها حربة تحركها قوى الشر فتتحرك لتصيب العرب وتدميهم ومتى تنهض اسرائيل للقتال ؟ عندما يخطو العرب في درب التقدم والتحرر . . عند تأميم القنال وبناء سد أسوان في مصر ، وعند امتلاك النفط وبناء سد الفرات في سورية

ولكن الشعب الذي أمم القنال وانتصر في بورسعيد : الشعب الذي قهر شركات النفط العاتية وسلك طريقه الى الحرية والعدالة ، الشعب الذي يبني السدين الشامخين لن يهون ويستكين ، لن يستسلم ويلين بل هو يصرخ بصوت مدو بلسان الشاعر :

أنا مشعل أنا مارد جبار لا الريح تخمدني ولا الاعصار
سأمد في الآفاق ألسنة اللظى حمراً لها في الخافقين أوار

هكذا قال الشاعر يوسف الخطيب معبراً عما تكن نفس كل عربي يريد لشعبه موطناً حراً تحت الشمس .

وتولد فلسطين بعد نكسة حزيران المنصرم في الضمير العربي ولادة

جديدة . لقد انفجر البركان وانطلق الفدائيون الاشاوس يقتحمون دولة البغي وربيبة المستعمرين . ماذا عساها رجت ؟ لقد احتلت اراضي تعلم هي مثلما يعلم سادتها المستعمرون الامريكيون والانكليز والالمان الغربيون الذين امدوها بكل ماتشاء بل بأكثر مماتشاء ووقفوا خلفها يحمونها ويشدّون ازرها انها لن تبقى لها طويلا، ولكنها من طرف آخر لم تحقق بغيتها باعادة حكم الردة الى سورية ومصر ، وتوزعت قواتها اشتاتا وتعطلت صناعاتها ومرافقها ، ونشر المناضلون العرب في ارجائها القلق والرعب .

وتهز حركة الفدائيين العرب حتى الاعماق . انها نبضة الحياة فيهم ، الرد على الهجمة الاستعمارية الضارية ، الرد الذي التقت فيه الآلام والآمال وعانقت الجراح البسمات ، انها بعث الأمة من سباتها الطويل وبدء مسيرتها الظافرة . فكيف لاتبعث في الشعراء أصداء حية ! قال الشاعر القروي :

بعث الشهيد ودحرج الحجرا	من قال اني لاجيء كفرا
مزقت اكفاني وهاأنــذا	خلف الحدود أجابه الخطرا
وأثور عاصفة مــدمرة	هوجاء لن تبقي ولن تذرا

ويساند الفدائيين الابطال الشعب العربي في الارض المحتـلة ، هؤلاء الذين لم يرحلوا فظلوا شوكة في جنب الجلاد وحربة في صدره ينغصون عيشـه ويؤرقون منامه ، يصفهم شاعرهم توفيق زيّاد :

هنا على صدوركم باقون كالجدار
وفي حلوقكم
كقطعة الزجاج ، كالصبّار

وفي عيونكم

زوبعة من نار

هنا على صدوركم باقون كالجدار

نجوع ، نعرى ، نتحدى

ننشد الاشعار

ان الاستعمار الذي زرع الدمار والموت في ربوع الجزائر يزرع الدمار والموت في ربوع فلسطين ، ولكن مثلما انتصرت الحياة في الجزائر على الدمار والموت ستنتصر الحياة في فلسطين على الدمار والموت ويطلع الصباح يغني الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي :

عيناي في عينيك ياوطن العقيدة والكفاح

والنـــار في قلبي وفي يدي السلاح

وأنا اغني والجراح

صبغت سماء مدينتي : « طلع الصباح »

إن ليل الاستعمار مهما طال فالى أفول وزوال ، ولن تكون الارض إلا لأهلها العاملين في جنباتها .

يعطينا الشاعر السوداني محي الدين فارس لمحات عن آمال الغد :

سينهار يوماً جدار الظلام ... وينبثق الفجر من هنـــا

وابصر في الأوجه العابسات ... مياه الحياة ... دبيب المنى

وابصر في الأرض حريـــة ... تضم الوجود ... وتطوي الدنى

إن درب الحرية ليس شائكاً فحسب ، بل هو متعرج طويل مخضب بالدم . بيد أن أمتنا العربية قد خرجت الى النور وليس من قوة تستطيع بعد

اليوم ان تعيدها الى ظلمة السجن . ان طلائعها قد انتصرت وصار لهـــا قلاع ، وحدة جامعة بناءة . اما الرجعية والاستعمار والصهيونية فهي قوى ذات مخالب وأنياب ولكنها قوى قـــد شاخت وانحطت ، وليس علينا إلا أن نسدد اليها ـ جنباً الى جنب مع الشعوب الثائرة الصامدة ـ ضربات محكمة قاتلة . لقد هرم القرصان ، هكذا قال الشاعر احمد سليمان الأحمد :

أيها التاريخ عاد العرب
شوطهم حن اليه الملعب
دربهم حيث تحط الشهب
هرم القرصان واختارت مصيره
في الهوى السوداء احقاد مريره
وانتفاضات شعوب تتحرر
خلدت بالدم حريتها .. فالخلد احمر

وسيذكر التاريخ ، في كل خطوة يخطوهـــا الشعب العربي في تحرره وتقدمه ، أنه كان للقلم دور في سيرته وللكلمة اثر في تقدمه .

التحليل النفسي والثقافة

بنية الأنا

للعالم الألماني

د. فرانز ألكساندر

ترجمة : أنطون شاهين

يعد البحث العلمي في مجال الشخصية من العلوم الفتية ، فمنذ زمن ليس بالبعيد كان علم النفس المدرسي يصف حوادث نفسية مفردة ليس إلا ، بعد أن يعزلها عزلاً تاماً عن علاقتها بالأنا ككل ، كالادراك الحسي ، والتذكر ، وبعض حوادث التفكير الأخرى . لاينكر أن محاولة تطبيق طرائق علم الفيزياء ، كالقياس والتجربة (علم النفس التجريبي) أدّى الى اكتشاف قوانين معينة في ميدان الادراك الحسي ، إلا أنه لم يضمن أي اطلاع واسع

المدى على علاقة الحوادث النفسية مع بعضها . ولم تفلح الطريقة الثانية ، ألا وهي طريقة التأمل الذاتي (الاستبطان) ، اكثر من أن تكون وضعاً فظاً فجّاً لمحتويات الشعور في لغة علمية ثقيلة الوطأة ، ولم تفتح هذه الطريقة ، بأي شكل كان ، باب الامكان ، لاستيعاب الحادثات النفسية كتعبيرات ناتجة عن شخصية متماسكة ذات علاقات موحدة . وهكذا بقي تفهم الصلات الواقعية في حياة النفس الانسانية ، مدة لابأس بها ، في حوزة الاستيعاب الشاعري ، الاستبصار .

قد استحقت « البسيكولوجيا » لقبها كعلم النفس ، منذ أن طالعتنا اكتشافات فرويد الأساسية . إنه ، دون أدنى شك ، قد حاز على قصب السبق في مضمار البحث عن محتوى الحوادث النفسية ، معتمداً في ذلك على طريقة نفسية حقة . كان علم النفس المدرسي قبله يستخدم التجريد ، ويميّز بين المفاهيم والتصورات ، والادراكات والعواطف ، أما هو فقد حاول سبر غور المحتويات النفسية الواقعية ؛ فمثله مثل مراقب ، ساذج وغير متحيز ، يفهم ويشير الى المحتويات النفسية ، بشكل يماثل الطريقة ، التي قد نتبعها جميعاً ، اذا أردنا أن ندرك كنه الرغبات ونميط اللثام عن البواعث القابعة في نفوس الآخرين . إلا أن فرويد سلك منهجاً علمياً دقيقاً ، ويمكن القول ، إنه أول عالم نفسي مارس علم النفس دون منازع .

يكمن اكتشاف فرويد الأساسي في تبيانه أن الشخصية العقلية في الفرد البشري لاتتسم بطابع موحد ، أو بتعبير آخر ، أنه في داخلنا ، إزاء الحوادث النفسية الواعية ، بواعث ورغبات ونزعات غريزية فعّالة ، لانعلم بها مطلقاً ، أو على الأقل لانعلم بها دائماً ، فغالباً لانشعر بها ، وخاصة إبان فعاليتها .

بادىء الأمر أظهرت الدراسات حول المحتويات النفسية اللاشعورية وفق الطريقة التحليلية النفسية صفة عامة : فالميول والرغبات والأفكار ، التي لاتوافق الشخصية الشعورية ، تغدو غيرمشعور بها ، وبالتالي ترفض رفضاً كلياً ، لكونها لاأخلاقية، لا اجتماعية ، لا جمالية (تناقض معنى الجمال) ؛ ان الشعور عادة لايعيها ، اما اذا ولجت الى حيز الشعور لفترة من الزمن ، تنضغط مجدداً وتزاح الى اللاشعور. لذلك فان التقسيم الثنائي الأولي للشخصية يكمن في التمييز بين الحوادث النفسية الشعورية والحوادث النفسية اللاشعورية . ان اللا وعي يفترض وجود تفاعـــل مضاد للطاقات النفسية ، هذا يعني حادثة ديناميكية تدعى الكبت ، هكذا يقود البحث الدقيق في الكبت الى أفق معرفة جديدة أساسية .

يعود نجاح عملية الكبت إلى أن الرغبات والنزعات المعنية ، الماثلة في داخلنا ، ليس فقط لايلبى نداؤها كي تشبع اذا ماقمنا بأعمال ملائمة ، بل ان نجاح هذه العملية يكمن في أن هذه النزعات تجمع في دائرة اللاوعي ، بحيث لايُشعر بها . ومن ناحية أخرى ، يتراءى لنا غالباً ،أن بعض الرغبات والميول ، التي نشعر بها ايضاً ، قد لاتخرج الى نطاق التحقيق ، ونحول دون اشباعها (مثـــلاً أود الذهاب الى المسرح هذا المساء ، إلا أنني لا استطيع ، لأنه عليّ أن أقوم بامور اكثر اهمية) ، ان مثل هذه الرغبة (الذهاب الى المسرح) لاتحتـاج لأن تزاح وتكبت ، حتى ولو رفضت من الوجهة الاخلاقية او الجماليـــة ، أي لأسباب عاطفية ، انها لاتتناقض والشخصية الخلقية . في هذه الحالة يحسن التحدث عن تخل شعوري أو عن حكم واع . اما عن الكبت فيحسن التحدث فقط ، عندما يُستبعد وصول الرغبة الى ساحة الشعور استبعاداً كلياً .

إن التمييز القائم بين الكبت وبين التخلي الشعوري يرغم بأخذ فرضية تقول بوجود جزء من أجزاء النفس يعمل لاشعورياً ، وتنحصر مهمته في إبعاد

الرغبات والميول من ساحـــة الشعور وفق وجهات النظر الاخلاقية والجمالية المذكورة آنفاً . وبما أن هذا الجزء يتمتع بفعالية تمائل محكمة ذات درجة عليا، دُعي درجة الكبت العليا . ان درجـــة الكبت العليا هذه ، الالحاح ، تشبه الضمير بعض الشبه ، كلاهما يكيل المدح والذم ، كلاهمـــا يردع ويأمر ؛ إلا أننا لانعي الأمر والردع في مجال الكبت ، بينما نعي ما يجول في ضميرنا تمام الوعي . وهناك صلة وثيقة بين الضمير الشعوري والضمير اللاشعوري ، الواقع في خدمة الرقابة ، وهي أن الالحاحات النفسية لكليها تتداخل وتتشعب ، وتنتمي الى أنانا ، وفق عاطفتنا الداخلية . إن هذا الجزء من الأنا يدعى **الأنا – المثالي** ، أو **الأنا – الأعلى** .

تقودنا هذه المعارف الى تقسيم ثلاثي للحياة العقلية كما سنرى . أولاً يتجلى لنا « الأنا » ، الجانب الظاهر الشعوري من الشخصية ، في معناه الحصري ، وهو يتلقى الادراكات من العالم الخارجي من جهة ، والادراكات الباطنيـــة ايضاً ، كالانفعالات والرغبات والميول من جهة ثانية ، اذا مااستطاعت هذه الادراكات الأخيرة العبور من رقابة الأنا الأعلى . من هنا وجب علينا وضع نقاط التمايز بين الأنا والأنا – الأعلى . فالأنا – الأعلى يهيمن على الدوافع والميول ، النابعة من اللاشعور ، والتي تدفع الذات للقيام بمختلف الأعمال والتصرفات ، فهو الذي يؤيد عبور جزء منها الى الشعور وفق وجهات النظر السائدة في البيئة الاجتماعية ،(هذا يعني السؤال عما اذا اعتبرت هذه الامور صالحة ومشروعة ، او على الأقل ، اذا كانت تتوافق مع المثل العليا توافقاً جزئياً ، بالنسبة لمن انسجم مع المجتمع) او يستبعد الجزء الآخر على ساحة الشعور (الكبت) . ويوجد اخيراً ، في كل منا، عالم أمنيات ودوافع يفتقر الى الشعور ، ويتكون من نزعات بدائية ثانوية ، غير

متلائمة بعد مع مطالب المجتمع . وقد اطلق فرويد اسم الهو على هـــذه المنطقة الاحتياطية الديناميكية في النفس ، حيث تسود الفوضى وحيث نجد أن الرغبات والنزعات والدوافع الأصلية ، المفعمة بالتناقضات ، لم تنسجم بعد لتشكل شخصية ما موحدة .

في استطاعتنا عرض العمل المشترك المتبادل لعناصر النفس الثلاثة على النحو التالي : ان المهمة الفعالة للأنا تكمن في امتحان الواقع ، في الدرجة الأولى ، هـــذا يعني في مراقبة العالم الخارجي والبحث النقدي عما اذا كانت هذه المعطيات تتلاءم مع مانريد ان نحققه ، وعن مدى أبعاد هـذا التحقيق . ان ثمرة هذه الدالة هو الاطلاع على العالم الخارجي . وهكذا فان الأنا يملك عضو مراقبة ، يدرك مايقع خارجا على الأخص ، إلا أنه يسيطر ايضاً على تهييج عضلاتنا ، أي على تصرفاتنا بواسطة الارادة . نستنتج مما تقدم ، أن مهمة الأنا تنحصر في تكوين الانسجام بين الدوافع والرغبات الصاعدة من اللاشعور ، وبين الامكانيات والصعوبات ، التي تقف حائلاً من قبل العالم الخارجي ، دون تحقيق ذلك الانسجام ، على الأنا بذل قصارى جهده لاشباع مطالب الفرد البشري قدر الامكان (تؤخذ بعين الاعتبار الظروف الواقعية) .

يتميز الأنا - الأعلى بكونه عضو ادراك باطني ، فكما أن الأنا يسيطر على التصرفات ، كذلك الأنا - الأعلى يسيطر على كلية الشعور بالدوافع والرغبات ، فهو يحرر الأنا من عب التسوية الفظة لرغبات الهو ، ولعالم الأمنيات ، محاولاً منع جزء كبير منها (خاصة تلك التي لاتجدي فتيلاً سلفاً ، لأن محتواها يتنافى والحياة العامة) من الوصول إلى الأنا الواعية . وفي مقدورنا اعتبار الأنا - الأعلى كجزء مفصوم عن الأنا ، يخضع له التنظيم الداخلي للدوافع والرغبات . أما تلاؤم الرغبات ،

التي أضحت في حيز الشعور ، مع المواقف والظروف الواقعية ، فملقى على عاتق الأنا .

يُعد الهو مركز طاقة هائلة في النفس . منه تنبع أصلاً كل حوافزنا ، رغباتنا ودوافعنا ، التي يطرأ عليها التعديل ، أول مايطرأ ، كي تنسجم مع الواقع الحياتي ، من خلال النشاط الصادر عن الأنا والأنا – الأعلى .

ومن الصعوبة بمكان ، ايضاح العلاقات القائمة بين الأنا والأنا – الأعلى . ان الأنا – الأعلى نفسها تمتلك نبعاً من القوة والسيطرة على منطقة الهو ، متابعة بسط نفوذها على ساحة الشعور ، فالأنا هو أبداً تحت تأثير الأنا – الأعلى . مع ان قسطاً من الرغبات يزاح عن مجال الأنا تحت تأثير الكبت ، إلا أن المحتويات النفسية الشعورية تحكم وتقدر كذلك بموجب المبادىء الخلقية الماثلة في الأنا – الأعلى .

ان البحث حول العناصر المكونة للنفس ، وبصورة خاصة منطقة الأنا– الأعلى ، المعتمد على التطور الزمني (النشوئي) ، يفسح لنا المجال كي نشاهد بوضوح التركيب المعقد للشخصية بأكمله .

بناء على النشوء الزمني تعتبر الأنا – الأعلى – كمنطقة رازحة تحت شروط المجتمع – أحدث عهداً من العناصر الباقية المكونة للنفس. إنها من نتائج الثقافة ، إنها ثمرة التربية . وتلك القواعد الخلقية النابعة من الصميم ، والتي دعاها كنط الامر المطلق – ويعني كنط بالأمر المطلق ، صوت الضمير المنطلق من داخلنا ، المميّز بين الخير والشر . وحسب رأيه فان حكم الضمير أو عزمه النهائي يتسم بالصحة الكلية وبالضرورة ، كما هو الامر بالنسبة للأحكام المنطقيـة ، اذن ما لا يمكن تعليله ، ثابتاً ومطلقاً – تلك القواعد لا نجدها لدى الطفل في السنوات الاولى من عمره .

ان حياة الطفل النفسية لا تتبلور وتنظم الا حسب وصايا المربين الآمرة الناهية. وشيئاً فشيئاً يغدو صوت الاهل الخارجي صوت الضمير الداخلي . من هنا يلاحظ أن اوجه الشبه الكائنة بين علاقة الشعوب البدائية المتوحشة والشعوب المتحضرة، تماثل وأوجه الشبه الكائنة بين علاقة الطفل ومربيه . إن إشباع رغبات معينة ، كالفسق بذوي القربى مثلاً ، يُحظر تحظيراً كلياً بمقتضى قوانين خارجية ، تفرض ذاتها فرضاً مرغماً صارماً ، ويُشعر بها تدريجياً ، كتحريم داخلي إلزامي لا مفر منه (تابو) ، والحواجز الداخلية ، الكامنة في نفس الانسان المتمدن ، تقف حائلاً ليس فقط دون تنفيذ مثل هذه الرغبات والنزعات، بل وايضاً دون الشعور بها ووعيها ؛ وهكذا يمثل الأنا ــ الأعلى كتاب شرائع ضمني ، قد قبلته الشخصية الانسانية . ويمكن القول ، إن التعليمات الخارجية آلت الى طابع ثان من جراء تبني الشخصية لها والعمل بها ، ولهــذا غدا الأنا ــ الأعلى ، مع مرور الزمن ، جهازاً آلياً ، ومن ثم سلطت النافذة لتحول هذه التعليمات أمام الحكم الواعي، فهي ازاء التمعن والرأي ، الذي قد يناهضها في المستقبل صامدة لا تلين . وهي تدين لفعاليتها الفجائية الصارمة بالشكر لعملية الحصر او الكف . ويجدر بالذكر أن هذا الطابع الراسخ والمنيع ، الذي تتحلى به المبادىء الخلقية ، كان السبب في قول كنط بقبليتها ، (Apriori) واعتبارها كقوانين التفكير في المنطق . أما التأويل النشوئي ، أي التأويل المبني على أساس تاريخ التطور ، فيظهر أن القوانين المنطقية قد نشأت من التلاؤم مع الواقع (العالم الخارجي ، القوانين الطبيعية) ، والقوانين الخلقية نشأت من التلاؤم مع الضرورات الاجتماعيــة . ومن السهل استيعاب ثبات وصرامة هذه القوانين لانها تمثل الشروط الاساسية في الحياة الانسانية المشتركة ، في تكوين دعائم المجتمع . ويمكن ايضاً تفسير لا شعورية

ذه القوانين ، او على الاقل تطبيقها اللاشعوري ، اذ انها ليست بحاجة للحكم الواعي ، للتمعن المستقصي ، ان استعمالها يتم بشكل أعمى ، لان هذه القوانين ابداً ، وفي جميع الحالات ، سارية المفعول ، طالما يبقى ذلك البنيان الاجتماعي ، التي صدرت عنه ، قائماً على قدم وساق . واذا طرأ تغيير ما على العلاقات الخارجية ، بصورة لا تتلاءم مطلقاً والاوضاع الجديدة ، عندئذ فقط لا بد من وضع تلك القوانين موضع التمحيص وتغييرها. لكن ما دامت هي سارية المفعول ، فتطبيقها الاعمى يجلب المنفعة ، لانها تضمن اولاً فجائية التأثير ، وبخفف الشعور قسطاً وافراً من عبء واجبه ، المتجه نحو الداخل ، القائم على تنظيم وتنسيق عالم الدوافع ، وهكذا يصبح الشعور اكثر استجابة لواجبه ، المتجه نحو الخارج ، والمنحصر في امتحان الواقع ، ثانياً .

يمكن معرفة دالة (وظيفة) وطبع (جوهر) الأنا - الاعلى من خلال التغييرات المرضية التي تطرأ عليها ، كما يحدث غالباً في تاريخ العلوم . يلعب نشاط الأنا - الاعلى الشاذ لدى المصابين بأمراض عصبية دوراً هاماً ، فقد تصبح تلك الخصائص ، الكامنة في الأنا - الاعلى ، والتي تضمن عملاً رادعاً كافياً مصدراً لوقوع امراض نفسية ، تحت تأثير المغالاة . ان معاناة الأنا - الاعلى القصوى ، ونشاطه الهادف الى كبت يتجاوز الحدود ويتفاقم - اذ إنه ، في هذه الحالة ، يقف حائلاً حتى دون اشباع الرغبات والميول ، التي يقررها الحكم الشعوري - يؤديان الى تكتل دوافع ، تسلك عند ذلك سبلاً ، وتظهر في نتائج ، تتصف بالصفة المرضية النفسية . فأعراض المرض النفسي ليست سوى عبارة عن محاولة لازاحة عبء الدوافع المتراكمة بعامل الكبت الذي بلغ الزبى .

تبرز في السواد الاعظم من المجتمعات المتحضرة في عصرنا الحالي دلائل

مرضية عامة من السير وفق المبادىء الاخلاقية الصارمة للأنا - الاعلى فيما يخص الجنس. فالميل الجنسي بأكمله ينظر اليه نظرة عدائية سيئة ، ولا يسمح باشباعه الا ضمن شروط معينة ، فلا توجه تلك النظرة فقط الى تلك الرغبات المشينة نحو الاهل في عهد الطفولة ، والتي تغير مجراها المهام الرئيسية للأنا - الاعلى . من هنا يتضح ، أن الميل الجنسي ، المحيط بعامل الكبت المفرط ، يشكل غالباً أعراضاً مرضية عصبية ، حينما يتوق الى الانعتاق والتحرر . هنا يكمن السبب ايضاً ، في أن الجنس يصطبغ بأهمية كبيرة عند نشوء مثل هذه الامراض . قد يلام التحليل النفسي ، في اكثر الأحيان ، لأنه يبالغ في شأن البواعث الجنسية في شرحه لحالات النفس المريضة ، ان هذا اللوم يقع على كاهل المجتمع ، وينتصب ضد أخلاقه الجنسية ذاتها ، الصارمة والزائفة . ان الدور المفرط للجنس إبان وقوع امراض نفسية ، ليس سوى نتيجة للكبت الجنسي المفرط .

من ناحية اخرى ، فان مساعينا الثقافية برمتها ، تدين بالشكر لعملية الكبت الطبيعية في الأنا - الأعلى . ان نشاط الأنا - الأعلى ، القائم في الحيلولة دون اشباع ميول لا أخلاقيه معينة ، يرغم مثل هذه الميول على الانسجام والتلاؤم مع المتطلبات التي يقرها المجتمع (التصعيد) خاصة وأن هناك ميولاً عدوانية وجنسية يطرأ عليها التعديل على ذلك النحو ، تحت ضغط الأنا - الأعلى ، فتغدو صالحة لخدمة المجتمع . فالاقتصاد والفن والعلم والدين ، ثمرات ذلك التصعيد ، ليست في الأصل سوى دوافع ونزعات قد تمعت لصبغتها الاخلاقية .

ان تكيفنا وسلوكنا ازاء العالم الخارجي على وجه العموم ، وجميع تصرفاتنا ، تنشأ من التفاعل المتبادل المشترك الصادر عن عناصر الشخصية العقلية الثلاثة . ويشير السلوك النموذجي في الحياة ، ونمط الانجاز النموذجي للميول

والرغبات والحاجات ، الى خصائص معينة تتجلى في الطبع . ويمكن القاء ضوء على النماذج المختلفة للطباع من خلال المقاييس المتباينة ، التي بموجبها ، تكشف ميول العناصر الثلاثة ، المكونة للشخصية ، والموصوفة آنفاً ، عن تصرفاتنا . وفي مقدورنا ، بانطلاقنا من وجهة النظر هذه في علم تحليل البنية النفسي (نظرية الأنا) تمييز نماذج الطباع التالية :

١ – الطبع المنحرف الاجرامي :

هذا الطبع يكشف ، في معظم الأحيان ، عن طاقة خلقية ضئيلة في حالة القمع ، ناتجة عن تربية ناقصة او خاطئة . ويلاحظ ، أن النزعات ، التي تتنافى والمجتمع والتي تلج من قبل الأنا – الأعلى لدى الانسان السوي ، لاتكتفي بغزو ساحة الشعور لديه ، بل تقوده للقيام باعمال مجرمة . ومن المستحسن اجراء تربية لاحقة واعية (رعاية اجتماعية) لمثل هذه الفئة ، غايتها تشجيع تكوين صحيح للأنا – الأعلى – المثالي .

٢ – الطبع العصبي أو الغريزي :

يتسم بالطبع العصبي أو الغريزي طائفة من الاشخاص ، قد خضعت تصرفاتهم وخضع سلوكهم الحياتي لطاقة نزعات لاشعورية ، أفلتت من قيد الرقابة الخلقية ، وهي رغم ذلك ، لاتلبث أن تبوح بوجود إلحاح أخلاقي خلال شعور بالذنب جلي ، لكن غالباً مايقتصر الأمر على حاجة لاشعورية لعقاب الذات . هؤلاء لايستطيعون فرض موقفهم الشخصي الخلقي الواعي في معترك الحياة ، لكنهم يشعرون بتيار فعلهم الغريزي المتعارض مع الاوضاع الاجتماعية ، فيقفون منه ، في مجال الشعور ، موقفاً سلبياً منكراً . مما تقدم نستنتج أنهم

أناس قد وهنت عزيمتهم ، وضعفت إرادتهم . فغالباً ماينطوي قـــدر هؤلاء على ظلال مأساوية ، إذ يسيئون الى أنفسهم بانفسهم ، بصورة عفوية وبقصد مبهم ، تحت وطأة الشعور بالذنب (الضمير السيء) ، كأني بهم يودون انزال العقوبات على ذواتهم لتصرفاتهم الغريزية . هذا الميل – الاســاءة الى الذات – في بعض تصرفاتهم ، ناتج عن الجزء الخلقي للشخصية (الأنا ـ الأعلى) الذي يشعر شعوراً حيوياً ببعد هذه التصرفات الغريزية عن المجال الأخلاقي ، فيشبع حاجاتـــه الاخلاقية عن طريق العقوبات (التصرفات المضرة بالذات) . هكذا يلاحظ أن هؤلاء يقومون بأعمال غريزية ، تتنافى والبيئة الاجتماعية ، متسربة من قبضة الرقابة ، لكن يُلاحظ ، انهم يقومون في الوقت نفســه أيضاً بتصرفات تعرض مصالحهم الذاتية ، وحتى وجودهم ذاته للخطر . بناء عليه ، فهم في الوقت نفسه ، مجرمون وقضاة ؛ لقـــد انصهرت في بوتقة شخصهم صفة المجرم وصفـــة القاضي . إلى هذه الطائفة تنتمي نماذج مشهورة كالمقامر والمغامر والمنافق ، وقد تصطدم في آخر المطاف بنهاية مفجعة تحت تأثير هذه النزعة الغامضـة المستترة ، المصوبة نبالها ضـــد الذات ، والتي يسهل على المحلل النفسي سبر غورها والكشف عنها .

٣ ــ الطبع المثبّط

يقابل الطائفة الأولى ، ذات الطبـع الاجرامي ، الطائفة ذات الطبـع المردوع المثبّط ، الذي يؤدي الى الوقوع بأمراض عصبية . ان أشخـــاص هذه الطائفة يقعون تحت تأثير الأنا ـ الأعلى الشديد القسـوة ، بحيث تردع وتشل جميـع أشغالهم وتصرفاتهم في معظم الأحيان ، اذ يتملكهم الاحسـاس ، بأنها ممنوعة محرمة فيكفون عن تنفيذها ، تحت وطأة الناقد الخلقي المتزمت ، الأنا ــ الأعلى.

ان الأشخاص المقيدين نفسياً ، الغائصين في عالم الهوس الى ابعد الحدود، ينتمون الى هذه الطائفة . وغالباً ما يغطون اللثام عن عالم يمور بالخيال ، قد نما فيهـــم ، فأبدعوه بديلا عن التصرفات الممنوعة والتجلي العديد الوجوه في عالم الواقع .

يفصل الطبـع الغريزي عن الطبـع المصاب بمرض عصبي، الاختلاف الكمي وحـسب . ان اعراض المصاب بمرض عصبي تنشأ كبديل عن اشباع رغباتـه التي احبطت من قبل الأنا الأعلى الصارم ، والتي ليست فقط لاتقود الى القيام بأعمال ملائمة ، بل لايشعر بها على الاطلاق ، كما ذكر سابقاً ، وقـد بيّنت الدراسات التحليلية النفسية أن هؤلاء الأشخاص لايستطيعون الاستغنـــاء عن رغباتهم اللا اجتماعية المتخلـّفة ، وأيضاً لايستطيعون تحقيق هذه الرغبات بسبب الالحاح الخلقي الـكامن في داخلهم ، فتنشأ ثمة اعراض عصبية كحل وسط ، هادفة الى اشباع تلك الرغبات المتخلـّفة اشباعاً وهمياً .

٤ ــ الطبـع السليم :

يتسم الطبـع السليم بالعمل المشترك المنسجم بين العناصر الثلاثة المكونة للشخصية . ان تربية هذا الطبـع تقود الى تكوين درجة الحـاح خلقي ، لاتقف بعد عقبة امام الطاقة الغريزية الاصلية لتثبطها بقساوة مفرطة ، بل تحولهـــا ، والتحول هذا يؤدي الى ترويضها وتأهيلها ، وهكذا تغدو الدوافع التي كانت لاتوافق البيئة الاجتماعية أصلاصالحة لخدمة المصلحة العامة ، لذلك فان الأنا ــ الأعلى في الانـسان الـسوي الـسليم لاتسبب حصراً مفرطاً للطاقـة الغريزية الحيوية ، غير أن أثره الرادع يكمن في أن كل هيجان ، يستحيل اشباعه في صورته الأصليـة لأسباب كامنة في المجتمع ، يتعرض لأنواع من التعديل البناء ، كي يستخدم لانجاز اعمال اجتماعية يستفاد منها .

اعلان هام

إلى السادة المشتركين في المجلة

قررت إدارة مجلة « المعرفة » أن توزع هديتها على المشتركين في عام ١٩٦٩ اعتباراً من شهر آذار (مارس) ولغاية شهر حزيران (يونيو) . والهدية هي كتاب من منشورات وزارة الثقافة في القطر العربي السوري .

وتضع المجلة أمام القراء القائمة التالية ، المؤلفة من عشرة كتب ، ليختار المشترك منها كتابا نقوم بإرساله إليه مع العدد القادم . ونرجو أن يتفضل المشترك باعلامنا اختياره بأسرع وقت ممكن ، وأن يبين لنا العنوان الذي يرغب في أن نرسل إليه الكتاب الهدية :

ميمونة : رواية للكاتب السنغالي عبد الله ساجي ترجمة بهجة قلصة ونعيم قداح

الأرض والسماء : بقلم العالم السوفييتي فولكوف ترجمة الدكتور أدهم السمان

بيت الانسانية الكبير : بقلم جماعة من العلماء السوفييت ترجمة عماد حاتم

في انتظار غودوت : مسرحية الكاتب الانكليزي صموئيل بيكيت ترجمة هالة فرح

أنشودة لينينغراد : مسرحية الكاتب السوفييتي إلكسي أربوزوف ترجمة محمد جديد

فلسطين مشكلة ماثلة : نادي كتاب الساعة في الهند ترجمة محمد جديد

في سبيل الثورة العربية : بقلم نخبة من كبار الكتاب الغربيين ترجمة حنين حاصباني وأنطون حمصي

من دفتر الصمت : للشاعر المصري محمد عفيفي مطر

الفن والقومية : بقلم الدكتور عفيف بهنسي

القومية العربية في القرن التاسع عشر : بقلم الدكتور توفيق برو

إن هذه الهدية دعوة للقراء الذين لم يشتركوا بعد في المجلة ، إلى أن يبادروا لتسجيل اشتراكهم فيها وإرسال القيمة حوالة بريدية أو شيكا على أحد المصارف المعتمدة في دمشق باسم محاسب مجلة المعرفة ؛ وسيتلقون هديتهم وفق اختيارهم مع أول عدد يصلهم .

أيّام امرئ القيس

محمّد عمران

... لو كان لي مكانْ
في كوكب الملكِ ، وصولجانْ
لكنت أومأتُ الى السيّافْ

« دحرج ثمار الشجر البريّ
واقطف هذه الأغصانْ »

لكنت أعلنت زمان القطافْ
لكن الشجر البريّ النامي يتسلّق وجه الشمسِ
يلتفُّ على عنق العرشِ
وأنا مقذوفٌ في الأرض تطاردني لعنات أبي
منبوذٌ كبعير جَرِبِ

لو كان لي مكانْ
لو كان لي لسانْ
صوتٌ ، لو ان خدم السلطانْ
تدخلني ، لو يسمع السلطانْ
لقلتُ : « يا سيدي السلطانْ
سيفك لم يقطع سوى يديكَ ، والخيولْ
مربوطةً ، وتسرج الطبولْ »
لقلتُ : « في عباءة السلطانْ
تدثّر الأفاعي
تولمُ للزمانْ
من رأسه المُضاعِ »
لكن السلطان ينام على الدغدغة الملساء ولا يدري
وندائي لا يصل السلطان ، تمزقه عتبات القصرِ

لو كان لي حذاءْ
لكانت العبيد قبلتَه ، واخترقتْ
بكعبه الجباهَ ، وافترشتْ
جماجم الخلق له ، وغتْ

لو كان لي حذاءْ
لاضطجع السلطان في حذائي

لنام في ردائي
لكنني صوت بلا حذاءْ

. . .

وكلما قلت رايت وجهي
يدور دولابٌ من الغبارِ
يطفئني ، فيرتمي نهاري
مهشماً ، على سريرِ كرهي
« أشعلي الخمر يا قيانُ
أطفئي ، كندةٌ دخانُ »
آه ، لو أني جدارٌ حجريُ
لو يسدُّ الطين أبوابي ، لو أني
حجرٌ ترسو على أقدامه الريح ؛ لو أني
فرح الماء الغبيُّ
« أوقدي الشعر يا قيانُ
أخمدي . خندجٌ جبانُ »

آه لو يُسرجُ الكلامْ !
لو تصير القصيدة مهراً أدق حوافره في غباوة حجرِ
لو تصير المُدامْ
حربةً أو حسامْ
فتصير الأغانيُ نبلاً وحبلاً يلفُّ على ضعف حجرِ

آه لو تقذف الدفوفُ
قافلاتٍ من السيوفْ
لتقمصتُ وجه غازٍ ؛ وجئتُ
كندةً في سريرها ؛ وذبحت
حرس القصر كلهم ، ودخلت
وتسلقت صدرها الوثنيا
ثم عانقتها فشعّت عليا
ثم أسلمتها مفاتيح شعري
وتركت النخيل ينمو بعينيها ،
وتجري الصحراء دفقة فجرٍ !
« اسرجي الحلم يا قيانُ
اسرجي ، يولد الزمانُ »

لو يمدُّ الزمان أغصانه الحبلى ،
لقطفت ورده الذهبيّا
ثم شكلت شعر كندة كالعاشقِ ،
أحرقت فوق شفتيا
ثم ألبستها جنوني ، مسافاتي ،
ووسّدتها ذراع حنيني
وتوسدتُ في عباءة عينيها ،
وغنا في يقظة التكوينِ
« أوقفي الحلم يا قيانُ

أوقفي . كندةُ دخانُ »

رُبَ طيرٍ مسافرٍ
رفّ في غربتي ، وغابْ
رب ريشٍ من السرابْ
قطر الشمس في دمي
فتعرّت على فمي
لغة الصحو والسحابْ
ثم أرسلتها حبالاً من الضوءِ
حبالى بالبرق والأمطارِ
موقظاتٍ هجوعَ كندةَ
يغسلنَ يديها ووجهها المتواري
ويُقبّلن ، خلسةً ، شفتيها
ثم يلبسنها رداء النهارِ

« إذ َيجي الحلم يا قيانُ
وانشدي : كندةٌ دخانُ »

بيني وبين الدخان ليلٌ
من الدنان العتيقة
أسقيه حتى يُريني
التراب شمساً ، وحتى
يصير وجهي حديقة

« دمّون » تقطف ، ترعى
ومدلجون سكارى
والليل عنقود شعرٍ
على شفاه العذارى

أيُّ صوت يجيىءُ ؟ يغزو مسافاتي ،
ويرمي حوابه في جبيني ؟
أي صوتٍ طعينٍ
يرتدي وجه كندةَ المذبوحا
يرتدي صيحة الصحارى ،
ويلقيها على باب ليليَ المجنون
ثم يهوي في مقلتيّ جريحا
« مات حجرٌ » ،
إنهض ، أموتك ياصوتُ ، أعدها ،
« حجرٌ قتيلٌ »
أَعدها ...
لاتعدها ،

« اليوم خمرٌ ، غداً أمرٌ » ،
أعدها ياصوت ، لا ، لاتعدها
« مات حجرٌ »
اليوم لا صحو ، لا سكر غداً ،
ياقيانُ ،

أين قياني
أنشديني شعري ،
أعيدي ليَ الليلَ ،
وعرّي من الحياة دناني
(ضيّعني أبي صغيرا
حمّلني دماءه كبيرا)

« أشعلي الليل ياقيانُ
وارقصي . حندج يهانُ »

.آ يبدأ الزمانُ ، ويسقي
نصلَه سيفُ كندة المهجورُ
وغداً يبدأ الغناء الكبيرُ

« أقدي الليل ياقيانُ
كندة النار لا الدخانُ »

في البدء .. كان الشعر

محمد أحمد العزب
— القاهرة

الشّعر .. والجنون .. والمغامره
وعنفوانُ لحظتين ساعة المقامره
وَدَوْخَةُ الرجوع في الصباح ..
ملوّحاً للشمس ..
حاملاً جبين عائدٍ من المخاطره
أوْسِمَتي ..
ورايتي ..
ومحنتي ..
الشّعر .. والجنون .. والمغامره !!!

• • •

قطفتُ في الرجوع نجمتين .. نجمتين
من كرْمةٍ حارسُها العجوز
مستيقظٌ .. ونائمٌ .. وبيْن بيْن
وشوشتُ نجمتين قلت : ياسنابل الضياء
وقلتُ غامزاً لنجمتين : يا أحبّة السماء
تضاحكتْ عيونُهن
سللتُ سيفي القديم للنزال والمبادره
همسْن :
عاد للخيال .. والجنون .. والمغامره !!!

. . .

وحين .. في المساء .. في شوارع القمر ..
توالدتْ على ضفاف الضوء الخيال باقةٌ من الثمر
وأرْهصتْ بالشّعر حمحماتُ خيله الجياد ..
تَنَفّضَتْ جراحُ أمسي القريب بالمداوره
وقلتُ للرّياح كلمتين ..
في بطاقةٍ صغيره :
« لاشعر .. لاجنون .. لامغامره » !!!

. . .

لكنّني أجفُّ في الربيع ..
أنتحي بعاري الكبير

أنوءُ بالثأر جائعاً ..
أتيهُ في مفارق التعبير
أعجز أن أخاطب الاله ،
وأن أُناقش الخواء .. والوجود .. والمصير
تمرُّ بي جنازةُ الحروف في مهاجر الغبار
فأنحني .. مقبلاً مسارها الأخير
أرشقها بزهرةٍ .. وزهرتيْن
أُغنم الرثاء كلمتيْن .. كلمتيْن
أغيب عن مراصد الحصار
أعبُّ من سيجار
أشرب كأس خمرة من أردأ الخمور
أغوص في مخانض التجديف للقرار
أُلاعِنُ الهواء .. والفضاء .. والبحار
أقاتل الحرّاس .. والأسوار
أُنقِّطُ التسآل في مجامع السُمّار
أقول للجائل خلفَ الليل : .. ياصديقي الوحيد
وأحتفي به على موائد النهار
أحسُّ لحظتين « لحظتين »
أنّ داخلي يثار
وأنه يشدّ قامته
وأنّه ينقضُّ كاسراً على مدائن الثلوج

على عشاش الصمت والمصادره
يجدّل الغبار .. والحجار
ويهزم المؤامره
ويلتقط الأمطار في يديه كالصغار
مغنّياً ..
للشّعر ..
والجنون ..
والمغامرة !!!

نيسان في دمشق

محمد منذر لطفي

لملمتُ من ثغر الصباح نسائما وقطفتُ من خد الرياض براعما
وملأتُ أقداحي بطيفكِ والهوى وشربتها في القلب حباً عارما
يابلدةً نزل الجمال بساحها دهراً .. وقلّدها الربيع مواسما
أيقظت فيَّ خواطراً .. وخواطراً وأثرتِ في الأعماق وجداً نائما
طرَّزتُ أشواقي إليكِ قصائداً ووضعتها فوق الجبين تمائما
سكرت عروس الشعر من أطيابها فكأنما صاغ الوليد[1] طلاسما
أطعمتها خُرَقَ الهوى حتى غدتْ للعاشقين مشارباً ومطاعما
سبحان من نثر الجمال بأرضها مُتَقَلاً .. وألقى في السماء مباسما
غنّيتُ غرطتها ودمَّر والهوى والمسكرين : كواعباً .. ونسائما
يابلدة السحر الحلال تحيةً من عاشق ترك الديار محارما
واليوم عاد إليك يحمل شوقه ليُقيم في واديكِ غرساً دائما

* * *

(١) هو أبو عبادة البحتري .

قالتْ وقد لعب الهوى بفؤادها ... ليلاً وخلّفَ في الخدود علائما
نيسان أقبــل ياحبيب وإنني ... شوقٌ ربيعيٌ يود غمــائما
نيسان أزهر في الحياة ملاعباً ... من عبقرٍ.. وحبا الوجودَ مغانما
فَلِمَ الدلال.. لِمَ البعادُ وأنت في ... قلبي ربيع لايضن مواسمــا
فأجبتها ياحلوة العينين لا ... عتب وإن كنت المحب الهائما
نيســان في سفر الجمال مفاتنٌ ... عذراءُ تُسكر في الصباح عوالما
لكنه في الشعب عيدٌ خــالدٌ ... يحيا على شفة الزمان ملاحمــا
نيسان تاريخ العلاء لأمــةٍ ... مدّتْ إلى نجم الخلود سلالمــا
نيسان ألف بطولةٍ عربيــةٍ ... قد أزهرت نصراً ومجداً فاغمـا
قد أزهرت فينا الجلاء وزهوه ... ومضت تتيه خوافياً وقوادمـا
نيسان أعراس الاباء على المدى ... سيظل يحيـا والفخار توائما

* * *

قالتْ فأين الفتح .. قلت تمهّلي ... هلاّ سألتِ عن الفتوح عمائما
هلا سألت عن « المثنى » قائداً ... عن «خالد» يطأ الحصون مهاجما
عن«خولة»عن«طارق»عن بأسه ... عنهم جميعاً إن أردتِ تراجما
الدهر بعض رواقهم فحديثهم ... ملأ الزمان مفاخراً ومكارما
قومي الذين صباحهم غمر الدنى ... قد أشرقوا في الكون صبحاً باسما
نشروا الضياء على الظلام وأقبلوا ... يتسابقون أصاغراً وأعاظما
سَلْ عنهم بيض السيوف وكلٌ من ... حمل السلاح .. قياصراً وأعاجما
فتحوا البلاد مشارقاً ومغاربا ... نشروا السلام مودةً وتراحمـا
وتزاحموا للمكرمات .. فلا يدٌ ... إلا وتحمــل للطغاة هزائمـا

نفحتهم الآيات روحاً ثائراً   فمضوا يجيلون الصعاب جماجما
هدموا العروش وكان رائد فتحهم   القائلِيْنِ : أسنة وصوارما

* * *

يا راية الفتح المبين تألّقي   فوق الصحارى الغافيات عزائما
في القدس في أرض السلام تفجّري   لهباً يحيــل الظالمين مآتما
غدرت بنا ريح السموم عشيةً   فأحالت الأعراس ليلاً قاتما
لكننا رغم الظلام وجنده   سنسد وجه البغي زحفاً عارما
من كل جبّار السواعد مارد   قد أطلق الثأر المميت قماقما
نحن الذين تفجرت أحقادنا   حمماً .. فروّعت الدخيل الظالما[1]
نحن الذينَ تألّقت أعلامنــا   فوق العدو صواعقاً وزمازما
فالقادسية .. لاتزال على المدى   نهب الفتوح أصالةً وتعاظما

* * *

قالتْ مدلّهتي وقد عصفتْ بها   ريح الفداء جعلتَ مني صارما
للثأر هيا يارفيق فاننــا   جيل الكفاح نعيش ليلاً جاثما
إما حيـاة كالشموس مضيئة   تمحو العدو حقيقةً .. ومزاعما
أو فالشهــادة ياحبيب سوية   نمضي ونترك في النضال ملاحما
فالموتُ في شرع الجهاد مُخلّدٌ   وأخو الجهالة من يكابر واهما

* * *

---

(١) اشارة الى معارك الجلاء.

الأهلّة

عزيزة هارون

حطّم الكأس بليل الحزن
واقتحْ مقلتيكْ
لم يعد ليل الأسى ليلاً رهيبا
لم يعد ليلاً مريبا
طلعت فيه أهلةْ
تمنح الأقدار أبياتٍ من الحبّ
وتعطيها على البذل أدلةْ
انها لا تعرف الرعب الأثيم
حطمته بشموخْ الانبياءْ
بنقاء الفجر سارت للفداء
تصنع التاريخ بالأرواح بالسرّ الذي يخلق أمّة
في عصور مدلهمّة
حطّم الكأس وصلْ
ان تكن لا تملك الروح الجريئةْ
فالأهلّةْ
طلعت تمسح آلام الخطيئة

الفيل يا ملك الزمان

مسرحية من فصل واحد

سعد الله ونوس

١ ـ القرار

(المسرح فارغ . زقاق تحصره في الخلف بيوت بائسة يتراكم عليها القدم والاوساخ .

جلبة بعيدة وراء المسرح . ولولة . امرأة تصرخ . أقدام تتراكض .

يستمر هذا الجو الثقيل فترة .

يعبر الزقاق رجل مسرع الخطى ، متجهم الرجه .)

الرجل ـ لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .. (فترة) لا حول ولا قوة إلا بالله العلي الـ . .

(ويختفي في الجهة الثانية من الزقاق ...

تسود الضجة المتناهية من اليمين وراء البيوت . ولولة نساء وأصوات ومختلف العبارات التي تنتشر من أفواه الناس أوقات المصائب . يتميز

عويل امرأة . ثم يبدأ كل شيء بالخفوت متحولا الى همهمة بعيدة تظل مسيطرة على المشهد حتى نهايته . . من اليسار يظهر رجل يعبر الزقاق بخطوات عجلى . يلتقي به رجل آخر يأتي من الجهة التي كانت تتناهى منها الضجة . وجهه مغموم ، وخطاه ثقيلة .)

الرجل ١ [1] - (مستوقفاً الآخر)وإذن فالخبر صحيح !

الرجل ٢ - يا ويل امه . ميتة لا يشتهيها المرء لعدوه .

الرجل ١ - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. وأين حدث ذلك ؟

الرجل ٢ - قرب دكان احمد عزت . هناك لا يخلو الزقاق ابداً من الأولاد .

الرجل ١ - كنت موجوداً ؟

(يدخل رجلان آخران وهما يتحدثان . جميع الذين يدخلون انما يأتون من الجهة التي يتناهى منها الضجيج) .

الرجل ٢ - جئت تماماً بعد وقوعه . سمعت صراخاً يذيب القلب فركضت أسأل عن الخبر . ياويل امه !

الرجل ٣ - (يتضح صوته) منظر يفتت الكبد . رأيته بعيني يصير عجيناً من لحم ودم . داس على صدره بل في أسفل الصدر . رأيت بعيني كيف انبعج بطنه واختلطت احشاؤه بتراب الزقاق .

الرجل ٤ - يا لطيف ..

الرجل ٢ - استغفر الله العظيم .

(كل الذين يدخلون ، ينضم بعضهم الى بعض ، ويتجمعون في الزقاق)

الرجل ٣ - أقسم انه لم يبق لجسمه شكل . كتلة ممعوسة من اللحم والدم . اللهم أبعد عنا البلى . يدور رأسي كلما تصورت منظره . لموه من الزقاق كما تلم البيضة المكسورة .

---

(١) باستثناء واحد فقط ، سنميز كل الذين يدخلون الى المسرح بالارقام .

الرجل ٢ ـ يا ويل امه !

الرجل ٣ ـ ارايتم الى البيضة حين تسقط على الارض . والله هكذا كان جسمه كمية من الدم والامعاء متناثرة على ارض الزقاق .

(يدخل رجل خامس)

الرجل ٤ ـ ماذا تنتظر ؟ طفل ليّن العود يدوسه فيل ضخم كفيل الملك . يا لطيف . .

الرجل ٥ ـ (منضماً اليهم) هذا الفيل !

(من الهمهمة البعيدة ينبثق عويل امرأة مفجوعة ، ثم يتلاشى .)

الرجل ١ ـ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

الرجل ٣ ـ (متابعاً روايته) اول الامر لم نعرفه . بدأ الناس يجتمعون وقلوبهم تكاد ان تتوقف من شدة الخوف . كل واحد يفكر بابنه . جميع اولاد الحارة كانوا في الزقاق يلعبون .

الرجل ٤ ـ واختارت المصيبة بيت محمد الفهد دون سائر البيوت .

الرجل ٢ ـ اللهم ألهم قلبه الصبر وقوة الاحتمال .

الرجل ١ ـ وسط الزقاق ، وامام اعين الرجال ، كيف يعقل ذلك !

الرجل ٤ ـ أتسأل !

الرجل ٥ ـ هذا الفيل !

الرجل ٣ ـ كان الأولاد يلعبون في الزقاق حين دخل عليهم الفيل . شخر شخيره المعتاد ، وأسرع الخطى لامبالياً بشيء . خاف الأولاد ، وجروا هاربين . إلا أن ابن محمد الفهد تعثّر وارتمى . ولشدة رعبه لم يستطع النهوض من عثرته ، فأدركه الفيل ، وداس فوقه .

(تدخل امرأتان ومعهما طفلة صغيرة تمسكها أمها من يدها . الدموع بادية في عيون المرأتين .)

الرجل١ - أستغفر الله .. أستغفر الله .

المرأة ١ - ياحسرتي .. بكاؤها يمزّق الفؤاد .

الرجل٢ - الطفل صار حطاماً ، والفيل تابع سيره غير مكترث بشيء .

المرأة ٢ - (صوت باك) الله يساعدها . تبدو كالمجنونة

الرجل٥ - أما الناس فقد سمّرهم الخوف . لم يتجرأ أحد على الاقتراب حتى اختفى بعيداً عن الزقاق .

(تنضم المرأتان والطفلة الى الرجال . شيئاً فشيئاً يتشكل اجتماع شعبي)

الرجل٣ - (متنهداً) تعرفون طبعاً .

الرجلان٢،٤ - (معاً) نعرف ياسيدي نعرف

الرجل٣ - فيل الملك .

الرجل ٥،والمرأة٢ - (بصوت واحد تقريباً) آه .. هذا الفيل

(فترة تتراءى فيها الرهبة والجزع)

الطفلة - أمي .. ولماذا داسه الفيل ؟..

المرأة ١ - من يعرف يا ابنتي .! نصيبه .

المرأة ٢ - أجارنا الله . أجارنا الله . تأتي الأم لتنادي ابنها فتلمّ جثته من الطريق .

الرجل ٢ - مصيبة تهدّ لها الجبال .

الطفلة - ألن يعاقبونه !

المرأة ١ - يعاقبون من ؟

الطفلة - الفيل

(الجميع يهزون رؤوسهم)

الرجلان٤،٥ـ (بيأس) يعاقبونه !

الرجل ٢ ـ ومن يستطيع أن يعاقب فيل الملك !

(تدخل امرأة عجوز وهي تولول بصوت حاد ، وتضرب بقبضتها على صدرها)

المرأة ٣ ـ آه .. ياويلي .. ياويلنا جميعاً .. لا أمان على طفل ولو وضعته أمه في بؤبؤ العين .

المرأة ٢ ـ ومن أين الأمان بعد الآن !

المرأة ١ ـ الأطفال يداسون في الطرقات

المرأة ٣ ـ ولا أحد يجرؤ على الكلام .

الرجلان٣،٥ـ الكلام !

المرأة ٢ ـ لا أمان على رزق أو حياة

المرأة ٣ ـ ولا أحد يجرؤ على الكلام

الرجلان٣،٥ـ الكلام !

الرجل ٤ ـ بدأت النسوة تخرّف .

الرجل ٢ ـ (يهز رأسه) كأن الكلام سهل .

الرجل ٤ ـ لاتعرف ما تقول .

الرجل ٣ ـ هذا فيل الملك يا امرأة .

(يدخل رجل سادس ، وينضم الى الآخرين)

المرأتان١،٢ـ (معاً ، بصوت فارغ) نعم .. فيل الملك .

الرجل ٦ ـ لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . سيدفنونه بلا غسل .

المرأة ٣ ـ (مولولة) ياضناي ..

الرجل ٣ - وهل بقي منه ما يُغسل !

الرجل ٤ - ياسيدي . طفل كهذا لايخشى على طهارته .

الرجل ٥ - المهم طهارة الروح لا الجسد .

المرأة ٢ - كقطفة الحبق . لم يتجاوز السابعة من عمره .

المرأة ١ - ولم يبصر من الدنيا شيئاً .

المرأة ٣ - (تعلو ولولتها) آه .. يالوعة الأمهات .

الطفلة - أمي .. سيحملونه في النعش مثل عمي .

المرأة ١ - حماك الله من كل شر . ماذكرك بها الآن !

(يدخل عدد آخر من الرجال والنساء ، ويتسع الاجتماع)

الطفلة - ولكن النعش كبير .

الرجل ٥ - ياحسرتي .. النعش للكبار والصغار على السواء ..

المرأة ٣ - (تعلو ولولتها) لا أمان .. لا أمان على شيء ..

الرجل ٣ - كفى ولولة يا امرأة ..

الرجل ٧ - على مدّ عمري رأيت كثيراً من الفيلة ، لكل ملك فيله ، ولكن حتى الآن لم أرَ كهذا الفيل شراً وغطرسة .

الرجل ٨ - لايمرّ يوم دون ان نرى لوناً من اذاه

الرجل ٣ - احذروا ..

الرجلان ٤،٥ - إنه فيل الملك .

الرجل ٩ - والملك يحب فيله كثيراً .

المرأة ٣ - (من خلال نحيبها) ونحن .. الا نحب اولادنا .!

المرأة ٤ - ليخطفني الموت قبل ان يصيب واحداً منهم مكروه .

الطفلة - ولماذا يحب الملك فيلاً مؤذياً يا امي ..

المرأة ١ - من يعرف يا ابنتي !

الرجل٨ - يا الله .. من اين جاءتنا هذه المصيبة !

الرجل٩ - المصائب مقيمة ابداً ..

الرجل٧ - تعشش في ديارنا كالفئران .

(يدخل زكريا – شاب نحيل ، عصبي الوجه ، عيناه محتقنتان بالغضب – ومعه رجال آخرون)

زكريا - (الصوت عنيف وساخط) ما هذا ! حالة لاتطاق ، ولا تحتمل . (يلتفت اليه الجميع بخشية وحذر) ألا يكفينا ما نحن فيه . فقر وعذاب .

الرجل١١- مظالم واعمال سخرة ..

الرجل ٢ - الشرطة ..

زكريا - اوبئة ..

الرجل١٢- مجاعات .

زكريا - ضرائب تفوق كسبنا الهزيل

الرجل ٥ - ربكم بصير .

الرجل ٧ - يتعب اللسان لو بدأنا الحديث عن همومنا .

زكريا - وفوق الحمل يجيئنا هذا الفيل .

المرأة ٣ - (مولولة) لا امان .. لا امان على شيء .

زكريا - لم نرَ يوماً ابيض منذ بدأ يسرح في المدينة .

الرجل ٨ - لا حارس ولا لجام .

زكريا - يلذّه الشرّ كالغذاء .

الرجل ٧ - كل يوم ضحيّة .

الرجل ١ - وكل يوم مصاب ..

زكريا - البارحة خرب بسطة عيسى الجردي . أتلف كل بضاعته ، وتركه يبكي خرابه وإفلاسه .

الرجل ٥ - مسكين سيجوع اهله .

زكريا - وابو محمد حسان . اما كاد ان يودي به .

الرجل ١١ - لولا حلم الله لقُضيَ عليه . ظهره متورّم .

الرجل ٨ - لن يغادر الفراش قبل شهور .

المرأة ٣ - لا امان .. لا امان على شيء .

الرجل ١٢ - علفت خروفي ثمانية اشهر . دفع لي القصاب عبد الهادي ثماني مجيديّات فلم ابعه ، وليتني بعته . هرسه كالبرغوث . عندما صار مكتنزاً باللحم والشحم هرسه كالبرغوث .

الرجل ٤ - يا لطيف ..

زكريا - وخربت مزروعاتنا .

الرجل ٧ - لم يدخل ارضاً إلا افسد زرعها ، واتلف محصولها .

الرجل ١١ - والنخيل . كم نخلة كسر حتى الآن !

الرجل ٨ - والله كسر النخلة الوحيدة التي املكها .

الرجل ٥ - أنخلتك فقط . ما بقي في البلدة كلها إلا النخيل المعمّر القوي .

(ينفر من الهمهمة البعيدة عويل امرأة مفجوعة)

المرأة ٤ - توجّعي يا امرأة .. توجّعي ...

المرأة ٣ - يا لوعة الأمهات ..

زكريا - وهدم بيت محمد ابراهيم ..

الرجل١٢- الله كبير . لهم بقيــة من عمر . لو انهم كانوا في البيت لعظمت المصيبة ..

زكريا - واليوم ..

الرجل ٤ - يا لطيف ..

أصوات - (متداخمــة ، ومختلطة) - أستغفر الله .

- مصيبة ..

- الله يساعد ..

- كارثة لا يحتملها رجل .

- أف ...

(ثم تبدأ الأصوات في التلاشي ..)

المرأة ٣ - لا امان .. لا امان على شيء .

الرجل ٧ - في حياتي كلها ما رأيت مثله شراً واذى . اعوذ بالله . كأن الشيطان يلبس صورته ، سحنة مقلوبة تفوح منها الكوارث .

أصوات - يا رب ..

- أتنسون انه فيل الملك !

- ما هذه الأيام السوداء !

زكريا - ويوماً بعد يوم سيزداد الضحايا وتكبر المصائب

الرجل١١- اليوم طفل بريء ، وغداً من يعرف !

زكريا - يلذّه الشرّ ويسرّه . كلما عاث في الأرض فساداً ازداد شراهة . أتعرفون تلك المخلوقات المصاصة للدماء . كلما تكاثرت ضحاياها ازدادت عطشاً

للدم . مزيداً من الدم . . (يقسو صوته أكثر) مزيداً من الدم .. مزيداً من الدم ...

أصوات - (جزعة ، ومشوشة) - تلطّف بعبادك وارحم .

- حلمك يا قدير يا رب ..

- يا جماعة .. أراكم تنسون انه فيل الملك .

- لعنة الله على هذه الحياة ..

- أي ذنب عظيم ...

زكريا - يمص" دمنا المزرق". والحالة من يوم الى يوم تسوء .

الرجل ٧ - وهل بقي في عروقنا دم .

الرجل ٢ - الله يبصر ..

الرجل ٥ - الصبر مفتاح الفرج .

زكريا - وإلام نصبر !

اصوات - (مبعثرة ، ومتتابعة) حتى يفرجها !

زكريا - نولد ونموت واعمارنا ليست الا انتظاراً للفرج . صبرنا على الفقر .

الرجل١١- صبرنا على الضرائب والأوبئة .

الرجل ٧ - صبرنا على المظالم واعمال السخرة .

زكريا - والآن يأتي هذا الفيل فيدوس كل ما بقي لنا .

الرجل١١- أولادنا .

الرجل ٨ - أرزاقنا .

المرأة ٣ - لا امان .. لا امان على شيء

زكريا - ولو دام الحال ، فسيأتي دور كل منا كي يبكي ابنه ، او يبكيه اهله؟

أصوات - ياربي عفوك .

- لايصيبكم إلا ما كتب عليكم .

- العين بصيرة واليد قصيرة .

- يدبرّها الله .

زكريا - لا .. ماعادت الحالة تطاق .

الرجل ٣ - تطاق .. أو لا تطاق . ماذا بيدنا .

زكريا - بيدنا !

أصوات - حقاً .. ماذا بيدنا ..

زكريا - أنا أقول لكم ماذا بيدنا .. نذهب جميعاً ، ونشكو أمرنا للملك . نشرح له مايحلّ بنا ، ونرجوه أن يردّ أذى فيله عنّا .

أصوات - (بين الهمهمة والخوف .. بعضها يبدأ قبل أن ينهي زكريا عبارته)

- نشكو أمرنا للملك .

- نشكو أمرنا للملك .

- ندخل إلى القصر .

- ولمَ لا ..

- ومن نحن حتى نتحدث مع الملوك .

- نحن ناس مظلومون .

- ربما يصغي إلينا ، ويرأف بحالنا .

- لن يسمحوا لنا .

- الشكوى لاتضرّ إن لم تنفع .

- قد يغضب ، فلا يعلم بمصيرنا إلا الله .

(ثم تبدأ الأصوات في التمايز ..)

المرأة ٣ ـ هو ذا رجل يجرؤ على الكلام .

الرجل٧ ـ نذهب ونصرخ قدّامه .. النجدة ياملك الزمان .

المرأة ٣ ـ لا امان على شيء .. لا امان .

المرأة ١ ـ والله لو سمع صراخ امّه ، لرقّ قلبه ولو كان من حجر .

الرجل ٩ ـ لكن الملك يحب فيله كثيراً .

الرجل ٣ ـ يدلله كأنه ابنه أو وزيره .

الرجل ٤ ـ رأوه يطعمه بيده .

الرجل١٢ـ ويشرف على حمامه بنفسه .

الرجل ٣ ـ سمعت ان الحرس يعزفون له الموسيقا حين يخرج من القصر ، وكذلك حين يعود .

الرجل ٩ ـ رغبته إرادة وما يفعله قانون .

الرجل ٥ ـ كاد الملك أن يطلق زوجه الملكة لانها لم تتوفق بالفيل .

زكريا ـ (صارخا) مبالغات .. مبالغات لا معنى لها .

الرجل ٣ ـ تقول مبالغات .. وكأنك لا تعيش في هذه المدينة .

زكريا ـ (يسيطر صوته على الضجيج) بل أعيش فيها . من منكم رأى الملك يطعم فيله بيده ، أو يشرف على حمامه بنفسه . بالتأكيد لا أحد . ربما كان يحبه . لا اقول لا . كل الملوك يحبون فيلتهم . غير أنكم تبالغون في تصوير الأمور .

الرجل ٣ ـ صحيح اننا لم نره ، ولم نعبر في حياتنا أسوار القصر . لكن لاتنس أن هناك خدماً يدخلون ويخرجون. وأن الاخبار يمكن أن تتسرب من داخل القصر .

الرجل ٤ ـ بل انها غالباً ما تتسرب .

زكريا ـ الخدم يحبون المغالاة في أخبار سادتهم . ذلك جزء من حرفتهم .

الرجل ٧ ـ بالفعل . لعلهم يهولون علينا الامور لا أكثر .

الرجل ٩ ـ واذا كان ما يرونه صحيحاً !

اصوات ـ سيطردوننا بقسوة .

ـ سيغضب الملك .

ـ واذا غضب الملوك فالله وحده يعلم ما يحدث .

زكريا ـ (مهدئاً الضوضاء) ولكن يا جماعة ، أصبحت حياتنا لا تحتمل ولا تطاق . ما الذي يمكن ان يخيفنا اكثر من هذا البلاء المقيم . التهديد كالسيف فوق رؤوسنا . والضحايا تتزايد من يوم الى آخر .

الرجل ١١ ـ مساكن الناس تهدم ، وتتركهم بلا مأوى .

المرأة ٢ ـ الاطفال يداسون في الطرقات بلا ذنب .

الرجل ـ الأرزاق تسبى وتضيع

الرجل ٥ ـ النخيل

الرجل ٦ ـ الماشية

المرأة ٣ ـ (مولولة) لا أمان على شيء .

الرجل ٣ ـ (ملتفتاً اليها بعصبية) كفى ولولة ايتها المرأة .

زكريا ـ من يريد ان يكون ابنه الضحية الآتية ، يلمه من الطريق بلا هيئة .

اصوات ـ بعداً للشر .

ـ حياتي ولا ظفر واحد منهم .

ـ ما عيشنا بعد أطفالنا ؟

زكريا - (الى الرجل الثالث) انت مثلاً . ألا تبـــالي لو فقدت واحداً من اولادك .

الرجل ٣ - (مرتبكا) لا ابالي ! من قال ذلك . لهم عيني وروحي . (متردداً) لكن ...

الرجل ٧ - أي رجل لا يبالي بفقدان اولاده !

الرجل ١١ - اللهم سوى الكافرين .

زكريا - وأرزاقكم ! أيستوي عندكم خرابها !

أصوات - يستوي !

- من أين نعيش ؟

- البقية الباقية .

- ثم من يعرف ماذا يخبيء الغد .

زكريا - وإذن ! أهناك خوف أشد من ان يخاف المرء كل لحظة على حياته أو طفله أو ما يملك .

اصوات - لا والله

- كلام صحيح .

- كله بلاء فلماذا لا نحاول !

- فعلاً .

- ماذا ننتظر ؟ ..

(ثم تمايز الاصوات تدريجياً)

الرجل ٧ - الحق .، رأي وجيه .

الرجل ١١ - منذ وقت طويل كان ينبغي ان نفكر في ذلك .

زكريا - ومن يعلم . ربما كان الملك لا يعرف ما يفعله بنا الفيل

اصوات - هذا جائز .

زكريا - لا يقولون له خشية إزعاجه ..

اصوات - والله جائز .

المرأة ٣ - فليجيء الرجال من أمثالك .

زكريا - لذلك ما من حل آخر . نذهب بانفسنا ونشكو للملك حالنا .

اصوات - نعم نذهب .

- هوذا رأي سديد ..

- كلما أسرعنا كان ذلك افضل .

- نقابل الملك ..

- نطلب منه إنصافنا .

الرجل ٣ - اللهم استرنا بسترك .

الرجل ٩ - هي مخاطرة على كل حال .

زكريا - ألا يزال بعض الرجال يترددون؟

الرجل ١١ - ولم التردد !

المرأة ٣ - هل ماتت النخوة ؟

الرجل ٣ - لمي لسانك ايتها العجوز .

الرجل ٧ - لم يبق حل آخر .

زكريا - اذن فليجتمع كل الناس في الباحة . نرتب كلامنا ، ثم نمضي الى القصر .

الطفلة - هل انادي ابي كي يذهب معهم .

المرأة ١ - (مؤنبة بصوت خفيض) هس .. لا يستطيع ابوك ان يترك عمله .

اصوات ـ يا الله يا ناس ...

ـ فلنجتمع في الباحة .

ـ الجميع . الجميع .

ـ سنذهب الى الملك ونشكو حالنا ..

ـ الرجال والنساء ..

ـ كل من يؤذيه الفيل .

ـ يا الله ..

(وفيما يخرجون تخفت الأضواء تدريجيا)

ـ الجميع بلا استثناء .

ـ الكثرة أفضل .

ـ بسرعة .

(يعم الظلام ، ويتلاشى ضجيجهم)

٢ ـ تدريبات

(يضاء المسرح . باحة عـامة . الناس يجتمعون ، يقف زكريا أمامهم . ضوضاء وغمغمات متداخلة غير واضحة)

زكريا ـ (مهدئاً الضجيج ، ومحاولاً السيطرة على الجمع) كما قلت لكم مراراً . المهم هو النظام . أن نكون كلمة واحدة وصوتاً واحـداً . كلما اتحدّت اصواتنا ازداد تأثيرها ، واشتد وقعهـا . ندخل هكذا .. (يمثل ما يقول) ننحني أمام الملك بكل احترام وأدب . ثم أصرخ بملء فمي . الفيلُ .. يا ملك الزمان

الجماعة ـ (اصواتهم مفككة لم تتحد بعد . بعضهم يبدأ متأخراً ، بعضهم يخطىء في العبارة ، وبعضهم يقول عبارات اخرى. يتضح التفكك ويزداد فترة بعد الأخرى)

- قتل ابن محمد الفهد . داسه في الطريق ؛ فصار لحماً مجبولاً بالطين .

زكريا - الفيل يا ملك الزمان .

الجماعة - قبل ايام كاد ان يقتل « ابو محمد حسان » . ولا يزال مطروحاً في فراشه حتى الآن .

زكريا - الفيلُ يا ملك الزمان .

الجماعة - خرب الأرزاق ..

(يتضح أكثر تفكك الاصوات ، ويزداد نشازها)

زكريا - يا جماعة ، المسألة تحتاج الى تنظيم وضبط . اذا لم نصبح كلمة واحدة وصوتاً واحداً تضيع قيمة شكوانا . لا يحتاج الأمر الى جهد عظيم . حاولوا ان تصرخوا العبارة في نفس الوقت . معاً تبدؤون . ومعاً تنتهون . لنجرب مرة اخرى .

اصوات - لا تسرعوا ..

- حقاً من الافضل ان نكون صوتاً واحداً .

- بلا فوضى .

- هناك من يشذ عن الكلام

- صوتاً واحداً .

زكريا - لنجرب مرة اخرى . اهدؤوا .. لنجرب مرة اخرى . (بعد أن يخف الضجيج) الفيلُ يا ملك الزمان .

الجماعة - (اصوات متضاربة) - قتل ابن محمد الفهد ..

- كسّر النخيل ..

زكريا - (مشيراً بالسكوت) لا .. لا .. من البداية .

اصوات - نعيد من جديد !

- في الإعادة إفادة .

- اننا نضيع الوقت .

زكريا - من البداية .. ذلك أفيد . المهم اتحاد الكلمة . يا الله .. الفيل يا ملك الزمان .

الجماعة - (بدأت الاصوات تتسق) قتل ابن محمد الفهد ، داسه في الطريق فصار لحماً مجبولاً بالطين .

زكريا - الفيل يا ملك الزمان .

الجماعة - قبل ايام كاد ان يقتل « ابو محمد حسان » . ولا يزال مطروحاً في فراشه حتى الآن .

زكريا - الفيل يا ملك الزمان .

الجماعة - كسر النخيل . لم يبق في البلدة الا المعمّر من النخيل .

زكريا - الفيل يا ملك الزمان .

الجماعة - هدم بيت محمد ابراهيم . ولو كانوا تحت سقفه آنذاك لعظم المأتم واشتدت الاحزان .

زكريا - الفيل يا ملك الزمان .

الجماعة - يقتل الخرفان . يدوس الدجاج . يظهر الموت اذا بان .

زكريا - الفيل يا ملك الزمان .

الجماعة - جعل الرعية بلا امان ..

زكريا - اندبي أيتها المرأة .. اندبي ..

المرأة ٣ - (تتميز عن الجمع) لا أمان .

الجماعة - الاطفال والارزاق .

المرأة ٣ - لا امان .

الجماعة - البيوت والحياة .

لا ضمان ولا امان .. لا ضمان ولا امان .

زكريا - ثم تتحد كل اصواتنا لنلقي بين الملك رجاءنا . يا الله .. ونحن

الجماعة - ونحن الفقراء سكان المدينة جئنا نشكو حالنا ، ومن الملك نتوسل إنصافنا . ضاقت بنا الحياة . ضاقت بنا الحياة ، ضاقت بنا الحياة .

(يزداد التفكك والنشاز)

زكريا - (ملوحاً بيده في احتجاج) ما زلنا بعيدين عن الإتقـــان المنشود . اذا لم تصبح اصواتنا صرخـــة واحدة . اذا لم تكن كلماتنا مرتبة وواضحة لن يفهم الملك ما نريد . لن يتأثر لحالنا او يشفق على اوضاعنا . هذه ليست شكوى رجل واحد . بل شكوى الجميع ينبغي ان نقولها بلسان واحد وصوت واحد .

اصوات - من الذي يخطىء ..

- كلامه صحيح .

- سينزعج الملك من اصواتنا المتنافرة

- الويل لنا ان انزعج .

- صوت في الشمال وصوت في الجنوب

- القصر له احترام .

- تأنّوا ياجماعة

- على مهلكم .

زكريا ـ سكوت .. سنجرب من جديد

اصوات ـ مرة اخرى !

ـ يكفي .

ـ ستُبَح اصواتنا

ـ اننا نتأخر .

زكريا ـ هذه آخر مرة . انتبهوا جيـــداً ، وتجنبوا اختلاط اصواتكم او تنافرهـا . لننته بإجماعة . سكوت .. استعدوا . الفيـل يا ملك الزمان .

(يبدأ الضوء بالانطفاء تدريجياً)

الجماعة ـ (الاصوات أكثر اتساقاً واتحاداً) قتل ابن محمـــد الفهد . داسه في الطريق ، فجعله لحماً معجوناً بالطين .

(وفيما تخف الاضواء ، تتلاشى الاصوات ايضاً . تصبح صدى ثم تخمد)

زكريا ـ الفيل يا ملك الزمان ..

الجماعة ـ وقبل ايام كاد ان يقتل (ابو محمد حسان) . ولا يزال مطروحاً في فراشه حتى الآن .

زكريا ـ الفيل يا ملك الزمان

(همهمة بعيدة تتخامد . ويعم الظلام فترة)

٢ ـ أمام قصر الملك :

(كل الناس يجتمعون أمـــام أبواب القصر الذي يشغل الجزء الأكبر من المسرح. انهم ينتظرون ، ويلغطون)

أصوات : تأخر الحارس .

ـ لن يسمحوا لنا بدخول القصر

- ولماذا لن يسمحوا لنا .
- (صوت موسى) من حق الرعية ، أن ترى ملكها .
- حقها . من الذي يبالي بالحقوق!
- وان لم يسمحوا لنا بالدخول.
- ماذا نفعل حينئذ .
- (صوت زكريا) اطمئنوا . لابد أن يأذن لنا الملك بالدخول عليه .
- وما الضرر في سماع حديثنا !
- يقولون عنه رقيق القلب .
- رأيته في عيد التتويج يبتسم .
- كانا نذكر ابتسامته .
- غير أن الحارس تأخر .
- اللهم جملها بالستر .
- قد يكون الملك مشغولاً .
- نحن رعيته .
- لمن نرفع ظلامتنا إذن !
- لعلها تنتهي على خير .
- (صوت زكريا) لاتنسوا . المهم أن نكون صوتاً واحداً
- كلمة واحدة .
- أرى الحارس .
- الحارس !
- ها هو الحارس أخيراً .

- أي جواب مجمل !

(يظهر الحارس على باب القصر)

الحارس - (باحتقار) أذن الملك لكم بالدخول

أصوات - آه .. أذن لنا بالدخول .

- أمدّ الله في عمر الملك .

- آمين .

الحارس - (مقاطعاً الضجة ،يزداد الاحتقار في وجهه) ولكن قبل ان تدخلوا نظفوا أحذيتكم جيداً ، وانفضوا ثيابكم كيلا يمرّ منها قمل او براغيث (يبدأ الناس لاشعوريا بمسح أحذيتهم ، وتنفيض ثيابهم) وأهمّ من كل هذا ان تدخلوا بنظام وأدب . إياكم ان تلمسوا شيئاً . وتذكروا انكم لستم على مزابلكم بل في قصر الملك .

زكريا - لاتخف .. لاتخف .. ستكون عند حسن ظنك في النظام والأدب .

الحارس - اتبعوني إذن . ولا تحدثوا ضجيجاً .

٤ - أمام الملك

(يتقدم الحارس ووراءه الناس . يتلامح على وجوههم الخشوع والخوف والارتباك ، وكلما تقدموا داخل القصر ستزداد هذه الأمارات وضوحاً وقوة . تنتشر بينهم همسات مبحوحة ومندهشة)

أصوات - أترى النوافير ؟

- كالخيال .

- انظر الى الرخام

- يتلألأ بكل الألوان

- (صوت زكريا) امشوا بهدوء ولا تجروا أحذيتكم جراً .

- الحراس قساة .

- ينتظرون إشارة وتسقط الأعناق .

- إننا ندخل القصر .

(يرتقون الدرجات المفضية الى الباب الرئيسي . حارسان يقفان باستعداد على جانبي الباب) .

- سيظهر العرش بكل مهابته .

- ترتخي ركبتاي ..

- هذا البهو .

- قلبي يدق .

- أحذروا أن تلوثوا السجاد .

- الحيطان تلمع كالنهار .

- أين الملك

- يفتح باباً آخر .

(يفتح الحارس باباً في صدر البهو يقف عليه أربعة حراس)

- ولكل باب حراسه .

- تشتد الحراسة من باب الى باب .

- وجوههم من الصوان أو الفولاذ .

- بدأت أتعرّق .

- (صوت الطفلة) أين يختبىء الملك ؟

- هسّ ...

- نمشي في نفق من الذهب ..

- (صوت زكريا) اضبطوا اعصابكم .

- يزيغ البصر ..

- أين يمضون بنا ؟

- ماهذه التجربة المخيفة !

- أصبح الحراس في كل الزوايا ..

- القتل عندهم أهون من التثاؤب .

- القصر كالمتاهة .

(يقف الحارس أمام باب آخر يحرسه عدد كبير من الجنود القساة)

الحارس - (ملتفتاً الى الجماعة ، وقد تزايدت رنة الاحتقار في صوته) الآن تدخلون قاعدة العرش . الويل لكم إن بدر منكم شغب أو قلة أدب . للمثول امام الملك أصول فلا تنسوا ذلك .

زكريا - سنثبت أننا نحسن الوقوف بين يدي الملك . أتسمعون . يجب ان نكون في غاية الأدب . ندخل في صفوف منتظمة ، وننحني باحترام وخشوع ، ثم بعدئذ نرفع للملك شكايتنا .

أصوات - سنرى الملك ..

- رأسي تدور .

- قلبي يدق .

- قلبي يدق .

(يفتح حارسان مصراعي الباب الكبير)

الحاوس ـ (ميمماً وجهه الى الداخل.لايزال على الباب) عامة المدينة على الباب يامك الزمان .

الملك ـ (من الداخل) ليدخلوا .

الحاوس ـ احنوا رؤوسكم وادخلوا .

(يتقدم زكريا ، يتبعـــه الناس الذين بدأ الذعر والاضطراب يشتتان نظراتهم ، وخطواتهم أيضاً) .

أصوات ـ (مبحوحة ، وراعشة) ـ الملك وبيده الصولجان ..

ـ ضوء كالشمس .

ـ لا ترفع رأسك .

ـ الحراس كالأشباح .

ـ في كل ركن وزاوية .

ـ العرش عالٍ ..

ـ والملك يتألق كالشهب .

ـ الملك ...

(تتجمد الملامح . يتحول الخوف صمتاً بارداً . الجميع خافضو الرؤوس ، زكريا في طليعتهم .. يجرون خطوات ثقيلة ، ينحنون الى اقصى حدود الانحناء ، ثم لايجرؤون على النهوض بعدئذ) .

الملك ـ ماذا تريد الرعية من ملكها ؟

(صمت ثقيل . لا اختلاجة ولا حركة . مجموعة من الاجساد المقوسة اليابسة) .

الملك ـ الأذن لكم بالكلام . ممّ جئتم تشكون ؟

زكريا ـ (متجرئاً ، صوته راجف) الفيل يامك الزمان .

الملك ـ ماخبر الفيل ؟

صوت ـ (راعش من بين الجماعة) قتـ . . (ثم يختنق الصوت، ويتلفت صاحبه حوله بذعر) .

زكريا ـ (يقوى صوته) الفيل ياملك الزمان .

الملك ـ (متأففاً) وماله الفيل !

صوت الطفلة ـ (خفيضاً) قتل ابن ... (تضم الأم يدها بهلع على فم الصغيرة ، وتجبرها على السكوت) .

الملك ـ ماذا أسمع ؟..

زكريا ـ (محرجا وغاضبا . يعلو صوته أكثر) الفيل ياملك الزمان .

الملك ـ كاد صبري ان ينفد . تكلم . ماخبر الفيل ؟

زكريا ـ (يائساً ، يلتفت نحو الناس المقوسي الظهور في انحناءة خوف) الفيـــل ياملك الزمان . .

الملك ـ توقف عن هذا النواح . الفيل ياملك الزمان . إما أن تتكلم أو آمر بجلدك .

(يتفرس زكريا في الناس باحتقار ويأس.يتردد لحظات ، ثم يتغير وجهه، ويتقدم من الملك) .

زكريا ـ (يمثل مايقوله بخفة وبراعة) نحن نحب الفيل ياملك الزمان . مثلكم نحبه ونرعاه . تبهجنا نزهاته في المدينة . وتسرنا رؤياه . تعودناه حتى أصبحنا لانتصور الحياة دونه .. ولكن .. لاحظنا ان الفيل دائماً وحيد لاينال حظه من الهناءة والسرور . الوحدة موحشـــة ياملك الزمان . لذلك فكرنا أن نأتي نحن الرعية فنطالب بتزويج

الفيل كي تخفّ وحدته ، وينجب لنا عشرات الأفيال .. مئات الافيال .. آلاف الافيال . كي تمتلىء المدينة بالفيلة .

أصوات ـ (كالحشرجة) تزويج الفيل ..

الملك ـ (مقهقها) أهذا ماجئتم تطلبونه .

زكريا ـ لعلك لاترد لنا الرجاء .

الملك ـ (ملتفتاً الى وزرائه وحاشيته) أتسمعون ! مطلب في غايةالطرافة . كنت أقول دائماً إني محظوظ برعيتي . حنان ورقة في الشعور . رعيتي مليئة بالحنان .. كلها حنان .. طبعاً سننفذ للشعب مطلبه . (يدق الصولجان) فرمانات ملكية . الفرمان الأول يأمر بالخروج الى بلاد الهند للبحث عن فيلة يتزوجها الفيل . الفرمان الثاني يأمر بمكافأة هذا الرجل الجريء وتعيينه مرافقاً دائماً للفيل . الفرمان الثالث يأمر باقامة فرح عام ليلة العرس ، تدق فيه الطبول ، وتوزع على الشعب المآكل والمشروبات ، ويعم السرور والانشراح خمسة أيام بلياليها .

زكريا ـ أدام الله فضل الملك علينا .

أصوات ـ (كالحشرجة) أدام الله فضل الملك علينا .

الملك ـ (ضاحكا) مطلبكم أجيب . تستطيعون الآن الانصراف .

(يتحركون بخطوات ذليلة منسحبين ، وتخفت الاضواء متلاشية) .

موبي ديك

ملحمة الهزيمة

محمد فاروق النابلسي

« موبي ديك » رائعة ملفل Hermann Melville ، كانت وما تزال تعتبر من أبرز ما قدمه الأدب الأمريكي لعالم الأدب وفي « موبي ديك » تنطلق عبقرية ملفل لتجمع بين الواقع والخيال، وتجعل البحث العلمي يلتقي بالأسطورة في اطار رمزي ملحمي رائع .

راوي القصة معلم يدعى اسماعيل ومن خلال كلامه وحده نتعرف على أبطال واحداث القصة . يقرر اسماعيل المشاركة في رحلة لصيد الحيتان ، ليس بدافع الصيد وانما بدافع رغبة قديمة ملحة لركوب البحر كانت تراوده كلما شاهد تابوتاً .

وفي « نيوبدفور » ، المدينة البحرية التي تعج بصيادي الحيتان ، تجول اسماعيل في الشوارع الداكنة الظلمة ودخل حانـــة بطرس التابوني حيث تأمل أسلحة الصيادين المعلقة على الجدران ونفر منها . وحضر اسماعيل موعظة في معبد الحواتين تلا فيها الواعظ بعضاً من سفر يونان (النبي يونس) الذي ابتلعه الحوت. وحذر الواعظ البحاوة من معصية الله ونصحهم بالرضوخ لعقابه اذا ما تعرضوا للعقاب .

توجه اسماعيل بعد ذلك الى جزيرة « نانتكون » مـــع متوحش بائع رؤوس محنطة لموتى وثنيين يدعى كويكوج ، واتفق الاثنان على ركوب سفينة صيد تدعى الباقوطة . وقبل السفر اعترض سبيل اسماعيل و كويكوج شخص يكتنفه الغموض حذرهما من مغبة السفر على تلك السفينة قائلاً : « كان الله في عون بحارتها » . ورداً على استفهام اسماعيل كشف هذا الشخص عن هويته قائلاً : اسمي ايليا ، لكن اسماعيل صعد السفينة بالرغم من الهواجس التي اعترته من تحذير ايليا .

يقوم بالعمل على تلك السفينة بحارة من انحاء متعددة من الارض ، فمنهم الأمريكي والهولندي والفرنسي ، ومنهم ايضاً البرتغالي والانكليزي والاسباني . أما قبطان السفينة فيدعى آخاب : رجل شديد البأس حاد النظرات ، شرير الهيئة ، في الثامنة والخمسين من عمره ، متعجرف ذو مزاج متقلب . والشيء الذي يلفت النظر فيه ساقه العاجية . وساق آخاب – كما نعلم من اسماعيل – قد بترها حوت أبيض ضخم يدعى موبي ديك بينما كان آخاب يحاول اصطياده .

كان آخاب دائم الحركة ، خطواته عصبية قلقة ، وعيناه تلوح فيها أفكار عاصفة . وكان البحارة يعلمون ما يدور في ذهن آخاب ويشعرون بما يعتمل في صدره من حقد على الحوت الذي بتر ساقه وأذله . ولقد وجه آخاب كل قدراته

نحو هدف واحد هو القضاء المبرم على موبي ديك ، وكأنه مستعد لأن يضحي بكل رغائب النفس البشرية في سبيل تحقيق هذا الهدف . وكان آخاب يستعمل في سبيل تحقيق غايته أدوات ، وكان الرجال من بين تلك الادوات .

استطاع بحارة الباقوطة اصطياد اكثر من حوت واحد ، وامتلأت براميل السفينة عنبراً . لكن آخاب لم يكتف بذلك واعلم بحارته أنه يسعى وراء حوت واحد من بين كل حيتان البحار هو موبي ديك الحوت الابيض . وأعلم بحارته أنه سيمنح أول من يرى موبي ديك ديناراً ذهبياً فريداً . ولقد رأى البحارة في هذا الدينار طلسم الحوت الأبيض .

بدأ ضباط السفينة يحذرون آخاب من مغبة السعي وراء موبي ديك الذي حطم كل السفن التي حاولت الاقتراب منه . وقال له جبريل - احد ضباط السفينة - ان مطاردة الحوت كفر ، وحذره من خاتمة كخاتمة الكافر الجاحد . لكن آخاب الأبتر الساق لم يتعظ ولم يأبه لهذا التحذير فكان يرى في نفسه أخطبوطاً يتحرك على مئة ساق .

وتقترب السفينة من المنطقة التي يظهر فيها الحوت عادة . وهنا يأمر آخاب بصنع عوامة انقاذ من تابوت ، مما يثير تساؤل اسماعيل : « أيمكن الامعان في هذا الرمز ؟ أيكون التابوت معنى من المعاني الروحية ؟ » . ولم يطل انتظار موبي ديك كثيراً ، وظهر هذا الحوت في عرض المحيط ابيضاً ، عظيماً ، رائعاً ، مخيفاً ؛ واندفع آخاب في قارب الصيد نحوه بجربة واثقة أعدها لهذا اللقاء . فما كان من الحوت الا ان اطاح بمركب آخاب وبالسفينة جاعلاً منها حطاماً . وانبسط كَفَنُ البحر المترامي متدرجاً ليضم بحارة السفينة .

ويصل اسماعيل الى نهاية روايته ، فيبين لنا كيفية نجاته قائلاً : « انفلت

التابوت نحوي ، وطفوت بعونه مدة يوم وليلة ، وانسابت القرشان حولي كأنما وضعت على افواهها اقفالاً ،حتى قدر لي ان تنتشلني سفينة عابرة . » (١)

ان لغة ملفل الشعرية الرائعة ، والرمز الفلسفي العميق ، بالاضافة الى الاطار الديني الأسطوري ، كل ذلك ، يجعل من موبي ديك ملحمة رمزية أنيقة تقف جنباً الى جنب مع الملاحم العظيمة التي عرفها الادب . وان روعة هذا العمل الادبي تكمن في عمق رمزيته .

ان قارىء « موبي ديك » يجد نفسه ، في أغلب الاحيان ، تائهاً في بحر الرمز ، ولهذا السبب نجد النقاد والادباء قد اولوا اهتماماً كبيراً لهذا الكتاب وخرج كل منهم بتأويل يتناسب وخط تفكيره الخاص . وهذا الكتاب يمكن تقسيم محتواه الى ثلاثة اقسام : قسم يضم قصة مطاردة آخاب للحوت ، وقسم يضم عدداً من الاساطير الدينية والحوادث التاريخية المتعلقة بالبحر والحيتان ، اماالقسم الاخير والذي لا يهمنا من الكتاب في بحثنا الادبي هذا ، فهو القسم الذي يبحث في البحر والحيتان ومهنة التحويت بشكل شبه موسوعي ، ويصعب جداً ملاحظة الخط الفاصل بين القسمين الاخيرين وذلك لان ملفل اراد ان يجعل من كتابه هذا موسوعة بحرية تبحث بالحوت والتحويت بشكل شبه موسوعي ، وكان عليه لذلك ان يضمن كتابه هذا معظم الاساطير الدينية والقصص التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع . لذلك ينعدم الخط الفاصل ، او يكاد ، بين ما جاء به ملفل من تلك الاساطير الدينية على سبيل الرمز وما جاء به على سبيل الذكر استكمالاً منه للمعلومات الموسوعية التي ضمنها كتابه هذا .

وتبعاً لهذا التقسيم نجد النقاد وقد انقسموا في تأويلهم لهذا الكتاب الى

---

(١) موبي ديك ـ تأليف هرمان ملفل ـ ترجمة الدكتور احسان عباس ـ منشورات دار الكاتب العربي .

زمرتين : الاولى وتنظر الى الكتاب من خلال قصة المطاردة وترى في قصة موبي ديك رمزاً لرحلة الحياة ، والزمرة الثانية وتنظر الى الكتاب ككل وتستخلص معاني اعمق وادق مما تقدمه الزمرة الاولى .

اما الزمرة التي اعتمدت في تحليلها للرمز في كتاب موبي ديك قصة مطاردة آخاب للحوت فقط دون الكتاب ككل،فانها تنطلق في تأويلها للرمز في الكتاب من منطلق واحد هو ان رحلة آخاب ترمز الى رحلة الانسان في الحياة. فهم يرون في آخاب رمزاً للانسان يسعى وراء غاية ما ، وفي البحر رمزاً للحياة، اما الحوت فيرون فيه رمزاً لغاية الانسان . وانطلاقاً من هذا المبدأ نجد منهم ، مثلاً ، من يقول بأن سعي آخاب وراء الحوت يرمز الى سعي انسان جشع وراء المال سعياً مجنوناً . وآخر يرى في آخاب رمزاً لعجوز اصيب بحب فتاة في مقتبل الشباب فراح يلاحقها بجنون اودى به الى نهايته . والذي نلاحظه في تلك الآراء انها تنطلق ، كما ذكرت ، من منطلق واحد هو سعي الانسان سعياً مجنوناً وراء غاية دنيوية غير خلقية تودي به الى دماره .وهذا النوع من التأويل ما هو إلا وليد قراءة سطحية للكتاب . واصحاب هذا الرأي يقتصرون على البحث في الرموز الاساسية الثلاثة في الكتاب : آخاب والحوت والمطاردة . وفي هذا تحاش للرموز العديدة الاخرى . وفي الاقتصار على الرموز الثلاثة تلك تشويه لحقيقة الكتاب. ونتيجة لهذا الاقتصار كانت قصة موبي ديك تصنف ، لفترة كبيرة من الزمن ، مع قصص الاطفال في مكتبات الولايات المتحدة . ولإعطاء الكتاب حق قدره لا بد وان نأخذ به ككل .

اما الزمرة الثانية من النقاد فلقد اعتمت –الى حد ما – بالكتاب ككل. فبحث هؤلاء النقاد في « موبي ديك » بشكل ادق ممعنين النظر في مجمل رموز

الكتاب، فجاءت تأويلاتهم أعمق مما تمخض عنه اولئك الذين نظروا الى الكتاب من خلال قصة المطاردة وحسب . ولا بد لي والامر كذلك من ان اتناول بالبحث كلا من تلك التأويلات على حدة .

يرى « تيرس هيلوي » أن الحوت الابيض يرمز الى ضمير ملفل المتعصب « البيوريتاني »، أما آخاب فيرمز الى النفس الأمارة بالسوء ، وما الصراع الدائر بين آخاب والحوت الا رمز للصراع الدائر بين ضمير ملفل ونفسه حيث ينتصر الضمير في النهاية . واعتمد هيلوي في هذا التأويل على النظريات الفرويدية (١) . ولا يمكن التسليم بهذا التفسير لأسباب كثيرة : فهو يركز على الصراع الدائر بين آخاب والحوت ويتناسى المطاردة . والمطاردة هي الأهم في القصة وليس الصراع. واذا نظرنا الى المطاردة نجد أن آخاب هو الذي يلاحق الحوت وليس العكس . أما اذا نظرنا الى الامر على ضوء نظريات فرويد فكيف يمكن لنا أن نوفق بين شخصية اسماعيل الذي يتكلم بلسان ملفل، وبين القول بأن آخاب هو ملفل العقل، والحوت هو الضمير؟ وبالاضافة الى كل هذا نجد في هذا التأويل تحاشياً لمعظم رموز الكتاب .

ويرى « ليون هاورد » أن الحوت الابيض يرمز الى الشر، بينما يمثل آخاب مسيحاً جديداً (٢) . وهذا التأويل ابعد مايكون عن غاية ملفل في كتابه الذي نحن بصدده . فليس من المعقول أن يرمز ملفل المسيحي المتعصب الى المسيح بشخص شرير بشع يهودي الاسم مطارد باللعنات . وليس المعقول ايضاً أن يرمز ملفل الى الشر بحوت ابيض وهو الذي خصص في كتابه فصلاً كاملاً يبين فيه

(١) Tyrus Hillway, Herman Melville (New - York 1963) . P. 73

(٢) Leon Howard, Herman Melville (St. Paul, 1963)

ويشرح قدسية اللون الابيض[1] . واذا سلمنا جدلاً، بأن آخاب هو مسيح يحاول القضاء على الحوت رمز الشر فكيف يمكن لنا أن نوفق بين هذا وتحذير جبريل لآخاب من قتل الحوت الذي يقول فيه: « احذر الذئب المرعب، واحذر الطاعون المخيف ، اذكر كيف ينشق قارب التحويت ويغرق .. ان الحوت الابيض ليس سوى تجسد يمثل الرب . احذر سوء خاتمة كخاتمة الكافر الجاحد. انك سائر في الاثر عما قريب » [2] ان هذا التحذير ينفي تماماً صحة التأويل الذي نحن بصدده وفيه نلاحظ أن ملفل قد اعطانا خطأ نرتكز عليه للوصول الى تفسير رمز الحوت بقوله : « ان الحوت الابيض ليس سوى تجسد يمثل الرب » .

ويفضل آخرون النظرية القائلة بأن الحوت يمثل الدين أما آخاب فيمثل العقل الحر ، وما الصراع الدائر في القصة الا رمزاً للصراع الدائر بين العقل والمنطق وبين ما جاءت به الاديان السماوية [3] . واصحاب هذا التفسير متأثرون بكون الكتاب يجمع بين واحتي العلم والاسطورة الدينية . وهذا الرأي ، وان كان يعطينا تفسيراً لمعظم رموز الكتاب ، لكنه مع ذلك يقف عاجزاً عن اعطائنا تفسيراً للرموز والاسماء التوراتية. اضف الى ذلك أن شخصية آخاب ـ بالرجوع الى الكتاب والى اصلها التاريخي ـ لا يمكن قبولها كرمز للعقل والمنطق ففي شخص آخاب يجتمع كل ما ليس عقلانياً بكل ماليس منطقياً .

وهناك من يجد في قصة الصراع الدائر في الكتاب رمزاً لصراع الانسان مع الطبيعة حيث يحاول الانسان تحدي الخالق في مسعاه لتخطي حدوده التي

---

(١) القصة (الفصل الثاني والاربعون واسمه بياض الحوت) .

(٢) القصة – الفصل الواحد وسبعون .

(٣) Richard Chase, Melville (New Tersey, 1963)

رسمت له . معتمدين في هذا على نظرية سلسلة الوجود العظمى التي جاء بها « آرثر لفجوي » . وهذا التفسير قاصر على الصراع وحده دون رموز الكتاب الاخرى، وهو يجعل من الكتاب نسخة قديمة لقصة العجوز والبحر بالرغم من الفرق الكبير بين أجواء كل من الكتابين (١) .

وقال السيد حيدر حيدر في مقال صغير له (٢) إن قصة موبي ديك ترمز الى هزيمة بني الانسان وإن هناك رموزاً توراتية في الكتاب واكتفى بذلك دون أن يبين لنا اسباب هزيمة الانسان ودون ان يعطينا تفسيراً لما سماه بالرموز التوراتية. لكن حيدر حيدر - بالرغم من ذلك - هو اول من القى الضوء الأكثر تركيزاً على قصة موبي ديك .

وفي نظري أن البحث في « موبي ديك » يتطلب تحديد الرموز الموجودة في الكتاب اولاً ثم تحليل هذه الرموز. ويمكن القول بأن كل ما ورد في الكتاب وكان غريباً عن عالم البحر يعد رمزاً . لأن الكاتب ضمن كتابه معلومات بحرية وقصة ، فكل ما لا يدخل في مجال المعلومات البحرية يعد جزءاً متمماً للقصة . فآخاب والحوت اللاواقعي واسماعيل والتابوت وايليا لا ينتمون الى عالم البحر ولا تربطهم بالبحر اية صلة. وما دام ملفل قد اوردهم في قصته ،فلا بد وان يكون وراء هذا الايراد هدف . ومهمتنا ان نكشف النقاب عن هذا الهدف وعن اسباب استعمال ملفل لأشياء واسماء معينة دون غيرها بالرغم من كونها غريبة جداً - ان لم نقل غير موجودة - في بيئته .

---

(١) Tyrus Hillway . Herman Mellville

(٢) مقال السيد حيدر حيدر نشر عام ١٩٦٥ في جريدة الثورة بدمشق ، اثر ظهور ترجمة القصة في الأسواق .

ومن هذا المنطلق ، اذا امعنا النظر في موبي ديك وأطلنا الوقوف امام رموزها لتراءت لنا صور تقشعر من هولها الاجساد . ففي « موبي ديك » نجد اسماعيل وآخاب والحوت وايليا قد بعثوا من عالم الاموات ودبت فيهم الحياة بعد مضي اكثر من الفي سنة على اختفائهم . ونجد جبريل وقد نزل من السماء لينقل قول الله من جديد .

ولنلتقط الآن انفاسنا ونعود بأذهاننا الى اكثر من الفي سنة مضت لنتعرف على اشخاص واشياء اندثرت ظهرت لنا في هذا الكتاب :

اسماعيل: هو النبي ابن ابراهيم عليه السلام الذي يعتبر جد العرب الاول .

آخاب : هو اعظم ملوك اليهود من الوجهة السياسية وهو الذي مكن اليهود من طرد شعب جنوب فلسطين والنقب من ارضه وتأسيس دولة يهودية قوية . اما من الوجهة الدينية فكان آخاب اكثر ملوك اليهود اثماً .

ايليا : هو إيليا الجلعادي الذي لم يمت بل صعد حياً الى السماء في مركبة نارية كما ورد في سفر الملوك وهو مار ايلياس الحي عند المسيحيين والخضر عند المسلمين (١). وهو النبي الذي تنبأ لآخاب بسوء الخاتمة ولعق الكلاب لدمه، وتحققت نبوءته عندما لقي آخاب مصرعه على يد جيش سوري بقيادة ابن هيداد .

أما كلمة التابوت فلقد كانت تتردد في القصة من أولها الى آخرها؛ فاسماعيل يبدأ قصته بقوله : « كلما وجدت نفسي أمام دكان التوابيت » ، ثم يزور حانة بطرس التابوتي ، ويوضع كويكوج في تابوت ، ويأمر آخاب بصنع عوامة انقاذ من تابوت ، ثم تكتب النجاة لإسماعيل بفضل التابوت . والتابوت هنا يذكرنا بتابوت يهودي يسمى تابوت العهد فـداود كان يدل على ربط الدين ومصيره

---

(١) شرح التلمود ، ترجمة شمعون موبال ـ طبعة عام ١٩٠٩م

بعجلة الدولة والسياسة بتابوت يحفظ فيه التوراة ووثيقة الحلف القبلي ، وكان داود يولي هذا التابوت عناية كبيرة حتى أنه أراد أن يبني له هيكلاً خاصاً يحفظه فيه . وكان اليهود يحملون هذا التابوت معهم في غزواتهم وحروبهم [١] .

ونخلص من إسناد الرموز في الكتاب الى أصلها التاريخي الى القول بأن قصة موبي ديك ليست إلا رمزاً لهزيمة اليهود في مسعاهم لايجاد وطن لهم . وهذه القصة ليست إلا نبوءة ملفل العبقري لبني إسرائيل .

فآخاب ليس إلا رمزاً للفكر اليهودي بشكل عام والانسان اليهودي الباحث عن وطن بشكل خاص . ولقد جعل ملفل من آخاب قائداً في قصته لكون آخاب قديماً من أعظم ملوك اليهود وأكثرهم إثماً . وهذا القبطان الذي جمع في سفينته بحارة من جنسيات متعددة هو رمز لمن يحاول جمع شتات اليهود في العالم. ولقد أبدع ملفل إذ وصفهم بقوله : « بحارة من أقنام الخلعاء والمارقين والأنذال المنبوذين وآكلي لحوم البشر ، ضعفاء لقلة غناء الفضيلة لديهم ، مثل هؤلاء البحارة يسوسهم مثل هذا القبطان كأنما انتقام وجمعهم قدر جهنمي [٢] » .

أما الأسلحة التي كان يستعملها هؤلاء البحارة فلقد تعجب منها اسماعيل قائلاً : « ترى أي متوحش آكل للحوم البشر كان يحمل تلك الاسلحة ليحصد بها الأرواح وكأنه الموت [٣] » . هؤلاء البحارة بقيادة هذا القرصان الأبتر وبمثل تلك الأسلحة كانوا يطاردون الحوت المقدس .

---

(١) كتاب أصول الصهيونية في الدين اليهودي، منشورات الجامعة العربية .

(٢) القصة ، ترجمة الدكتور احسان عباس ص ٣١٢ الفصل ٤١ .

(٣) القصة ، الفصل الثالث .

والحوت ليس إلا رمزاً للوطن الذي ينشده اليهود . إذ أن ابتلاع الحوت للنبي يونس وإعادته الى أرضه ايهدي العبرانيين، اتخذ اليهود منه حجة من بين الحجج الواهية التي يستندون اليها في إطلاق اسم شعب الله المختار على أنفسهم . والرسم الموجود على غلاف كتاب « اسرائيل » دليل على ذلك [1].

لم يكترث البحارة في القصة لموعظة الواعظ في معبد الحواتين، فلقد خاطبهم قائلاً: « يا ركاب هذه السفينة خذوا العبرة من يونان ... واقبلوا بقضاء الله وعقابه حتى ينجيكم الله » ، لكن البحارة رمز اليهود الذين عاثوا في الارض فساداً لم يقبلوا بعقاب الله لهم وتشتيتهم، بل بدأوا لم شملهم بغية العودة الى أرض الميعاد المتمثلة بالحوت في قصة موبي ديك . وفي قطع الحوت لساعد آخاب رمز الى اللعنة التي أنزلها الله باليهود فشتت شملهم وأضعفهم وأذلهم .

وطال طوافهم في العالم ، ولم يكترثوا لتحذير جبريل لهم الذي قال: «إن الحوت الأبيض ليس سوى تجسد يمثل الرب ... احذر سوء الخاتمة » . إن جبريل الذي يحذر آخاب هنا، هو نفس جبريل الذي أوحى لإيليا النبي منذ اكثر من ألفي سنة أن يحذر آخاب من سوء الخاتمة ولعق الكلاب لدمه . وليس إيليا الذي ظهر في القصة ليقول عن بحارة السفينة : كان الله في عونهم، إلا رمزاً لإيليا القديم الذي حذر آخاب من سوء الخاتمة .

وكان آخاب يغري بحارته بدينار ذهبي عليه رسوم تدل على السماء وعليه رسم لأنهر كنهر بقطولس . فاذا تأملنا هذا الدينار لوجدنا فيه رمزاً لاستعمال اليهود للمال كوسيلة وسلاح للوصول الى غاياتهم . والرسوم التي تظهر على الدينار

---

(1) David Catarivas, Israël «petite planète» Collections Microcosme 14, 1957.

وتشير الى السماء تدل على فلسطين. فالسماء في الانكليزية تدل عليها كلمة Zion [1]. وهذه الكلمة تطلق على جبل صهيون وتستعمل ايضاً للدلالة على القدس ، ومنها اشتقت كلمة الصهيونية Zionism . أما نهر بقطولس فيقال انه من ذهب خالص وقد أتت ثروة قارون منه[2] . ولقد ضمن ملفل هذا الدينار رسوماً لأبراج السماء إشارة منه الى ان نهاية اليهود تكمن فيما يسعون اليه ، فنراه يشرح رسوم الابراج المرسومة على الدينار قائلاً : « تبدأ بالحمل ككلب داعر يلدنا ... وتنتهي بالحوت حيث تكمن النهاية » . فهو يرى في السعي وراء الحوت موتاً محتماً . فلقد حطم هذا الحوت رمز الوطن كل من حاول الاقتراب منه ونوه ، ملفل بذلك قائلا : إن الحوت الابيض حطم كل السفن التي حاولت النيل منه .

وتقترب السفينة من الحوت المنشود ، ويجيء آخاب تابوت داود الذي يضم الدين والسياسة في جانبيه استعداداً للقتال كما كان يفعل اليهود عادة في غزواتهم. وتنزل اللعنة بركاب السفينة الملعونة ويلقى القراصنة حتفهم . فهم لم يتعظوا بدروس الماضي . حسبوا انفسهم شعب الله المختار ونسوا أو تناسوا خطاب الله لهم في توراتهم إذ يقول :

« ويل للأمة الخاطئة . الشعب الثقيل الإثم . نسل فاعلي الشر . أولاد مفسدين . تركوا الرب ... ارتدوا الى الوراء . علام تضربون بعد ؟ تزدادون زيغاناً؟ كل القلب مريض وكل القلب سقيم من أسفل القدم الى الرأس. ليس فيه صحة بل جرح وإحباط ... »[3] « ويل للبنين المتمردين - يقول الرب - حتى انهم يجرون

---

(١) موسوعة كولومبيا Columbia Encyclopedia

(٢) حاشية المترجم - القصة - .

(٣) التوراة - اشعياء - ١٥ : ٤ - ٨

رأياً وليس مني ، ويسكبون سكباً وليس بروحي ، ليزيدوا خطيئة ... لانه شعب متمرد أولاد كذب لم يشاءوا ان يسمعوا شريعة الرب [1] ».

لقد لعنهم الله مرة فطردهم من الوطن الذي عاثوا فيه فساداً ، لكنهم لم يقبلوا جزاء الله وحسبوا انفسهم يصنعون القدر .

ولقد نجا في النهاية إسماعيل رمز امة العرب . فلقد شارك في الرحلة لكنه لم يكن إلا ساخطاً على القائمين بها وناقماً عليهم . ولم يكن ينتمي الى الشرذمة القذرة . فاسماعيل ليس بحاراً وانما معلم . وكان يحمل في كيانه بذور بقائه . ولقد نجا اسماعيل بفضل التابوت الذي انفلت نحوه . وفي ذلك إشارة من ملفل الى هزيمة قديمة لليهود « فلقد انتهت حروب الفلسطانيين مرة بانهزام اليهود ووقوع تابوت العهد الذي كان معهم في قبضة أعدائهم فغنمه الفلسطانيون مع ماغنموه وكان ذلك في عام ٢٨٣١ للخليقة » [2] .

وانسابت القرشان حول اسماعيل كانما وضعت على أفواهها اقفالاً ، ولم يدن الموت منه لأنه لم ينتم الى الشرذمة القذرة وكان مقدر له ان يعيش .

أخيراً أحب أن أذكر بأن كتاب موبي ديك ظهر عام ١٨٥١ ، حين كانت الصهيونية العالمية قد بدأت بذرتها تنشب جذورهـا في الأرض وتعمل جاهدة لجمع شتات اليهود فكرياً وعنصرياً للسعي للحصول على وطن . فما كان من ملفل وقد وصلت الى مسامعه جرائم اليهود ومساعيهم إلا أن جعل من كتابه

---

(١) التوراة – اشعياء – ٣٠ : ١ – ١١

(٢) شرح التلمود . شمعون موبال .

« موبي ديك » نبوءة ملحمية رائعة لعزيمة اليهود في مسعاهم للحصول على وطن ، معتمداً في هذه النبوءة على العبرة المستمدة من التاريخ القديم [1] .

(١) في عام ١٨٥١ ، حين ظهرت القصة وقبل هذا التاريخ وخاصة في الفترة الواقعة مابين ١٨٤٠ – ١٨٥١ ، شهد العالم نشاطاً كبيراً لليهود . ففي عام ١٨٤٠ قدم موسى مونتفوار مشروعاً للورد بالمرستون لتوطين اليهود في فلسطين . وفي عام ١٨٤٨ – كما يقول الصهاينة في كتبهم – تم تحرير جميع يهود اوروبا وخاصة في فرنسا . وبين عامي ١٨٤٠ – ١٨٥١ شهد العالم أبشع انواع الجرائم اليهودية التلمودية وأخص منها بالذكر قتل الأب توما الكبوشي في دمشق عام ١٨٤٠ التي ذكرها زعماء الصهاينة في كتاب Zionist Idea . وقالوا انهم نجحوا في طمس تلك الجريمة ، حين توسطوا للضغط على علي باشا لمنع اعدام القتلة اليهود . وقال احد مؤلفي كتاب Zionist Idea « لقد نجحنا في إبعاد الشبهة عنا في كل انحاء العالم وتجنبنا سخط المجتمعات في اوروبا ، التي نجم اثر جريمة قتل الأب توما » . وعلى كل حال فان مقالي هو رأي شخصي متجرد ، ذكرت فيه من القصة مايدعم وجهة نظري ، وتركت من البراهين المئات مما يوجد في صفحات القصة ليطلع عليها القارىء الباحث بنفسه .

إنقاذ الكتاب العربي

ظافر عبد الواحد

طرح المعرض الدولي للكتـــاب في القاهرة(١) عدة مشاكل تكاد تتفرع جميعاً عن السؤال التالي : ماهي علاقـــة القارىء العربي بالكتاب ؟ وظهرت بعض هذه المشاكل في الفترة التمهيدية ، فقد كانت ادارة المعرض حريصة على افتتاحه في موعده المحدد ، لذلك كانت تتابع مع السلطات المسؤولة عملية الكتب الواردة الى أراضي الجمهورية العربية المتحدة ، لتعرض في الاجنحة العربية والأجنبية . فرغم ان الكتب كانت معفاة من الجمارك ، فقد كانت بحاجة الى

(١) العدد السابق من مجلة « المعرفة » ص ١٨٧ - ١٨٨ .

بيانات جمركية . أما الرقابة فقد كانت رحبة الصدر بدليل أن بعض الكتب الممنوعة عرضت . وتخطت بعض الدول إجراء الاستيراد ، اذ أرسلت مطبوعاتها بالحقيبة الدبلوماسية .

فاذا كانت هذه الدول خشيت تأخر وصول كتبها إلى المعرض رغم كل التسهيلات ، فما بالك بالقارىء العربي - مواطناً عادياً - وكيف يصله الكتاب؟ وقبل ان نتساءل كيف يصله الكتاب ، علينا ان نتساءل أين القارىء العربي ؟

إن الناشرين الذين يشكون قلة القراء ، وانصراف المثقفين عن مطالعة الكتب الى دور السينما ، شاهدوا الاقبال الشديد على المعرض ، رغم ان زيارته كانت لقاء تذكرة ذات قيمة . ولم تكن الزيارة لمجرد الاطلاع بل كانت للشراء ويا خيبة الأمل حين لاتكون من الكتاب نسخ كافية للبيع ! وهنا يبدأ السؤال عن كيفية الحصول عليه ، وتبرز صعوبة تحويل العملة والجمارك وغيرها من من الاجراءات بين الاقطار العربية أكثر مما تبرز بين البلادالعربية والأجنبية .

فالقارىء العربي موجود ، ولكنه حين يتقن لغة اجنبية ينصرف الى مطالعة الكتب الاجنبية .

لقد ازدحم زوار المعرض في الأجنحة الاجنبية ، رغم ان هناك مؤسسة تستورد معظم الكتب المعروضة فيها .

ليس الأمر مجرد سهولة تناول الكتاب من اجنحة متقاربة ، بدل البحث عنه في مكتبات متباعدة .

فماذا يبهر القارىء العربي في الكتاب الاجنبي ؟

رخص الثمن ؟ حسن الاخراج ؟ جودة المضمون ؟

ان الاسباب الرئيسية لرخص الثمن هي : تخفيض نسبة ربح الناشر ،

ورخص كلفة الطباعة ، و كثرة النسخ المطبوعة . اعتقد ان هناك نسبة مئوية عالمية معروفة لتحديد ربح الناشر بالنسبة لثمن بيع الكتاب ؛ اما في البلاد العربية فليس هناك نسبة محددة ، وانما هي مسألة صفقة خاضعة للمساومة بين المؤلف والناشر . وقد يصل الامر الى تحمل المؤلف نفقات الطبع كاملة .

وغالباً ما يبحث الناشر العربي عن الاسماء المشهورة ليمنحها اكبر نسبة من الربح ، وهذه اسهل طريقة لتمييز الغث من الثمين ، اذ قلما ينتشر بين القراء الكتاب الذي لم يشتهر اسم مؤلفه ، وقل أن تجد بين الاسماء الجديدة من يؤلف أفكاراً جديدة . ولكن المؤلف المشهور الآن ، لم يكن كذلك عندما نشر اول كتاب . وربما كان في الكتاب الذي الفه قبل ان يشتهر افكار اثمن من الافكار التي تضمها احدث كتبه التي تهافت الناشرون على نشرها بعد شهرته .

أما كلفة الطباعة ، فرغم تفاوتها بين البلاد العربية ، فانها معتدلة بالنسبة لكلفة الطباعة في العالم . ولا شك انه كلما زاد عدد النسخ المطبوعة ، قلت كلفة النسخة الواحدة . والعلاقة متبادلة بين عدد القراء وثمن الكتاب ، فكلما زاد عدد القراء امكن تخفيض ثمن الكتاب ، وكلما خفض ثمن الكتاب زاد عدد القراء .

فيمكن تخفيض كلفة الطباعة بتسهيل استيراد الورق والآلات الطابعة ، ما دامت اجور اليد العاملة معتدلة . واذا خفض الناشر نسبة ربحه وبالتالي ثمن النسخة ، زاد اقبال القراء على الشراء ، فزاد عدد النسخ المطبوعة ، وانخفضت كلفة النسخة ، وزاد عدد النسخ المباعة وربح الناشر ، وتخلص الناشر العربي من الدخلاء الذين يقومون بتصوير الكتب المطبوعة ، وبيعها بثمن ارخص .

اما بالنسبة للإخراج الفني ، فان اكبر مؤسسات النشر العربية الحكومية منها والخاصة لم تبلغ ما بلغته دولة صغيرة كبلغاريا مشابهة ظروفها لظروفنا ولكنها تعتمد

على ذوق فنانيها في اغلفة الكتب واللوحات التي تضمها وتملك القدرات الفنية والطباعية لتنفيذ التصميم على أفضل وجه ، ناهيك عن الجناح الايطالي في المعرض الذي عرضت فيه احدى دور النشر كتباً للأطفال وكتباً لتعليم اللغات الاجنبية في جيب كل كتاب بضع اسطوانات ترشد المتعلم الى اللفظ واللهجة . وليس مستحيلاً على الكتاب العربي ان يبلغ القمة في الاخراج الفني .

يبقى محتوى الكتب الاجنبية ، وهنا يقف القارىء العربي امام الشعور بالنقص . انه يحاول ان يلحق بركب الحضارة العالمية ، التي تطرح اسئلة يجيب عليها مفكروها اجابات جديدة بالدراسة . ويدهش المفكرون العرب دهشة تجعل بعضهم يكتفي بترجمة الفكر الغربي ، بينما يتأمله الآخرون محاولين تمثله علهم يستطيعون الاجابة على الاسئلة التي تطرحها الحضارة العالمية على امتهم ؛ ويشرع بعض الاغرار في تسفيه تلك الحضارة او يستسلمون لها بالرد على بعض اسئلتها على النحو الذي اراده صاحب السؤال .

وقد لوحظ ان الاقبال كان شديداً على كتب التراث العربي التي الفها اجدادنا في اوج حضارتنا والتي نشرت مؤخراً ، كما اتجه الجمهور الى الكتب المترجمة التي تنقل روائع الفكر العالمي المعاصر . اما الكتب المؤلفة التي لقيت رواجاً ، فكانت من هذا الشعر الحديث الذي يطرح فيه الشباب الاسئلة التي يبحثون عن اجابة عنها . وكانت اعجوبة الاعاجيب الكتب العلمية لجامعتي دمشق وحلب ، ذلك انها مطبوعة باللغة العربية ، رغم انها ليست مؤلفة بالمعنى الصحيح ، اذ ان مؤلفيها ينقلون فيها نتائج ابحاث العلماء الغربيين ، ولا يستغنون عن المصطلحات الاجنبية حتى في عناوين الكتب (مثلاً كتاب الميكانيك الكوانتي) .

وكان المعرض مناسبة للقاء بين الناشرين العرب والاجانب . كان بعض

الناشرين الاجانب يبيعون حق ترجمة مطبوعاتهم لكل قطر عربي على حدة ، ظناً منهم ان لكل قطر لغته ، حتى علموا ان لغة الكتابة واحدة وان اختلاف لغة الحديث ليست اكثر من اختلاف اللهجات بين المقاطعات الالمانية مثلاً . وهذا ينبهنا الى ضرورة التخلي عن اللهجات المحلية حتى في المجلات العربية .

وكان يكفي ان يعلن احد الناشرين عن خصم ٢٠٪ في مبيعاته ، حتى تجد مئات الزوار وقد اتجهوا من الاجنحة الاخرى الى جناحه . انهـــا نفسية الزبون الذي يود الحصول على السلعة بارخص ثمن ، ولذلك يقوم الناشرون بين فينة واخرى باجراء تخفيض على ثمن ما كسد لديهم من المطبوعات .

باع الناشرون العرب والاجانب الوف الكتب في المعرض ، فماذا فعلوا بثمنها ؟ كان لهم الحق في تحويل نصف المبلغ الى بلادهم ، ولكن معظمهم انفق المبلغ اثناء إقامته في القاهرة ، فلم تكن المبالغ كبيرة . غير ان هذا يثير موضوع استيراد الكتب وتصديرها ، فان صعوبة تحويل العملة يضطر الناشرين الى اتباع طريقة المقايضة ، وهذا يعني فرض توازن في النشر بين البلاد العربية . فاذا كان بلدان عربيـان يتقايضان الكتب ، فان على كل منهما ان يشتري من الآخر عدداً من النسخ والكتب يعادل ثمنها ما يشتريه الآخر . واذا كانت القاهرة وبيروت همـــا المركزان الحاليان للنشر ، فان السوق المستهلكة للمطبوعات ليست في ج . ع . م او لبنان وانما في الاقطار العربية الاخرى .

وحاولت جامعة الدول العربية دراسة بعض هذه المشاكل ومشاكل اخرى في الحلقة الثانية التي عقدت اثناء المعرض لدراسة وسائل تيسير تـداول الكتاب العربي . وكانت هذه الحلقة اشبه بواجب تقوم به الجامعة التي جمدت فيها الدول العربية نشاط خبرائها . وكانت نقطة القوة والضعف في هذه الحلقة اشتراك

الموظفين واصحاب دور النشر من مختلف الاقطار العربية في دراسة هذه المشاكل: نقطة قوة لأن هذا يعني تمثيل جميع المهتمين بالنشر في القطاعين العام والخاص ، ونقطة ضعف لأن الموظفين لم يكونوا يملكون امر تنفيذ التوصيات التي اتخذتها الحلقة ، ولأن بعض اصحاب دور النشر اتوا بعقلية رأسمالية لعقد بعض الصفقات. كان من الطبيعي ان يشترك اتحاد الناشرين في كل من ج . ع . م ولبنان في وضع مشروع القانون الاساسي للاتحام العـــام للناشرين العرب ، الذي اقرته الحلقة . ومن اهم اهداف الاتحاد العـام إيجاد مجالات للتعـاون والعمل المشترك الذي ينهض بعمليات النشر ويعود عليها بالخير ، ويخلق الفرص والإمكانيات التي تؤدي الى ترويج الكتاب العربي وتيسير تداوله بين الاقطار العربية .

ومن توصيات الحلقة ايضاً : إصدار قسائم عربية على غرار كوبونات اليونسكو ، لشراء الكتب - تخفيض اجور نقل المطبوعات - الغاء الرسوم على الورق والكتب - اقامة معارض دورية للكتاب العربي - نشر المكتبات على مستوى المدينة والقرية والمدرسة والحي والمنزل - تخفيف الرقابة على المطبوعات العربية تيسيراً لتداولها - انشاء شركة عربية مهمتها توزيع المطبوعات العربية ودور النشر والأفراد - قيام الامانة العامة لجامعة الدول العربية باصدار نشرة مكتبية عربية تضم جميع ما يطبع في الوطن العربي .

وبدهي أن تنفيذ هـذه التوصيات مرهون باقرار السلطات التشريعية في البلاد العربية .

تبقى مع ذلك مشكلة تنظيم البريد العربي بحيث نضمن وصول المطبوعات الى من ترسل اليهم ، اذ ان ثمة شيئاً من التحلل من هـــذه المسؤولية لدى بعض ادارات البريد العربية .

وقد ترك للاتحاد العام للناشرين العرب أمر البحث عن الوسائل الكفيلة بتسهيل استيراد خامات الطباعة كالورق والحبر وآلات الطباعة وموادها وقطع غيارها وتوفير العملات اللازمة .

وإذا لاحظنا قلة عــدد النسخ المباعة من المطبوعات العربية في الدول الأجنبية ، تبين لنـــا أن القطع النادر الذي يمكننا الحصول عليه بهذه الوسيلة لايستحق الذكر .

وإذا كانت الصناعة العربية لم تبلغ درجة تسمح لها بانتاج الآلات الطابعة ، فان الدول العربية يمكنها اتباع سياسة الاكتفاء الذاتي في صناعة قطـــع الغيار والورق والحبر .

وقد أعلنت منظمة اليونسكو عن استعدادها لتمويل البلاد العربية بما تحتاجه من الآلات الطابعة ، في حال تنظيم حملة لمكافحة الأمية .

وقد آن للدول العربية أن تضع خطة هذه الحملة التي ستستخدم هـــذه الآلات لطباعة الكتب لتعليم الأميين ، وبذلك تتسع قاعدة القراء . ويجب ان تستعد أثناء الحملة وسائل النشر لتلقف المتحررين من الأمية بالكتب التي تناسبهم بحيث لايقنطون من متابعة التعلم والمطالعة ، فتقدم لهم مايهمهم من الموضوعات بأسلوب مبسط وأحرف لاترهق العين وإخراج فني جذاب .

وعندما يتحرر عشرات ملايين العرب من الأمية ، تنصرف المطابع التي قدمتها منظمة اليونسكو عن طباعة كتب تعليم الأميين الى طباعة الكتب لهؤلاء القراء الجدد الذين يشكلون أضعاف عدد القراء الحاليين ؛ وليس بعيداً ذلك اليوم الذي يباع فيه من الكتاب العربي ملايين النسخ .

إن الأموال التي تنفق على الثقافة ومكافحة الأمية ، ستقدم علماء وعمالاً

مختصين ينهضون بالصناعة ، ومنها صناعة الآلات الطابعة ، فلا تستهلك الآلات التي قدمتها منظمة اليونسكو قبل نشوء صناعة عربية للآلات الطابعة .

لقد استولت الصحف والمجلات ووسائل الإعلام الأخرى – كالإذاعة والتلفزيون والسينما – على الأرض التي كان ينتشر فيها الكتاب ، فلا أقل من أن تحافظ على بقائه ، وهي المدينة له بوجودها . حفظ الكتاب الحضارة التي أنجزت التلفزيون . وإن الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون والسينما ، مدينة في مقالاتها وبرامجها وأفلامها للمراجع المطبوعة التي تعتمد عليها . وهي تتفوق على الكتاب في الإمكانات الفنية التي تسمح لها بتبسيط الثقافة لتقديمها بأساليب جذابة للمثقفين وغيرهم . وحسب هذه الوسائل ان تتقاضى أجوراً رمزية عن الإعلان عن الكتب ، وأن تخصص الزوايا لتعريف الكتب الهامة ، ونقد ما هو جدير منها بالنقد . فالكتاب ليس سلعة ، وإن من يعتبره سلعة هو تاجر وليس بناشر . واذا كنا نعتبر عدد النسخ المباعة من الكتاب دليلا على نجاحه ، فليس لأن الربح دليل النجاح ، ولكن كيلا تبدد الثروة القومية في موضوعات لاتهم الرأي العام . وليس عدد النسخ المباعة الدليل الصادق على مدى أهمية الكتاب ، فقد يباع من كتاب يعالج الجنس من ناحية غير علمية اكثر مما يباع من كتاب يعالجه من ناحية علمية .

ونحن بحاجة الى دراسة لنفسية الجماهير لمعرفة ما تميل اليه وما تحتاج اليه من المواضيع ، بحيث نستعمل أسلوباً نخلط فيه للقارىء الموضوع الذي يحتاجه بالموضوع الذي يميل اليه ، حتى يقرأ الموضوع الذي يميل اليه وقد دسسنا فيه ما يحتاجه ، مثلما تقدم للطفل العلاج مغلفاً بالسكر . وعلى المؤلف ان يتصور ، وهو يكتب ، المستوى الثقافي للقارىء الذي يكتب له .

واذا كان على وزارات التربية رصد الاعتمادات اللازمة لاغناء مكتبات المدارس بالكتب ، فان على الناشرين تقديم بعض النسخ هدية حين تقصر الاعتمادات ، لا لأن في ذلك دعاية للكتاب وحسب ، بل لأن في ذلك تعويداً للطلاب على المطالعة فيقومون بشراء الكتب على نفقتهم الخاصة ، وتصبح هذه الكتب نواة للمكتبة المنزلية .

واذا كان الباحث لا يحفظ في مكتبه المراجع التي تلزمه ، فما بالك بالمواطن العادي ! انه سيلقى الفرج في المكتبات التي تقيمها الدولة في المدن والقرى والاحياء ، اذا تيسرت له سبل استعارتها . ويمكن ازالة قيود الاستعارة عندما يتمتع المواطن بوعي القارىء الذي يحافظ على سلامة الكتاب ، والا فانه يتلف الكتاب الذي دفع ثمنه كدافع للضرائب .

ما اسهل ان توصي الحلقة بمنع قيام ناشرين بترجمة كتاب واحد ، وما اصعب تنفيذ هذه التوصية ، اذا عرفنا ان معظم شكوى الناشرين في الحلقة كانت من قيام بعضهم بتصوير كتب التراث المطبوعة بعد تحقيقها وطبعها بطريقة (الأوفست) ، دون ان يدفعوا مكافأة لمحقق المخطوطة ، مما يسمح لهم ببيع النسخة بثمن ارخص من النسخة الأصلية . ولا يكفي اعتبار من يتبع هذه الطريقة دخيلاً على المهنة وفصله من اتحاد الناشرين اذا كان منتسباً اليه ، ولا يعتبر مزيفاً طالما انه يتبع أرقى الطرق الطباعية ، وانما يعتبر سارقاً لانه يسرق حق المؤلف والناشر الاصلي ، ويعاقب بموجب قانون حماية حق المؤلف الذي اوصت الحلقة كل قطر باصداره . ويمكن منعه من ارتكاب هذه الجريمة – التي تؤذي الناشر والمؤلف دون القارىء – بان يقوم الناشر بتخفيض ثمن النسخة وان يعيد طبع الكتاب قبل نفاد نسخ الطبعة الاولى .

وقد اعترفت الحلقة بحق كل دولة في الرقابة ، عندما اوصت بتخفيفها ومراعاة عامل الزمن . فيجب دعم جهاز الرقابة كماً و كيفاً : كمـــاً ليستطيع انجاز مراقبة المطبوعات باسرع ما يمكن ، و كيفاً كيلا تكون الرقابة متزمتة حتى لا يقبل الرقيب من الآراء ما يخالف رأيه . ولو راقب المؤلف كتابته لأغنى الحكومات عن أجهزة الرقابة . فالسياسة لم تنفصل عن الثقافة منذ ايام الاغريق. وقد اقام افلاطون جمهورية على اساس المثل ، وتوخى في نظامها ايصال الفلاسفة الى رؤية المثل . واذا انفصلت السياسة عن الاحداث اليومية ، ونزلت الثقافة من صومعتها،التقتابحيث تكون الثقافة المواطن الواعي لدوره في المجتمع ، ويفسح النظام السياسي المجـــال للحوار الفكري . وتقصر المسافة بين الكتب العلمية والكتب الاعلامية ، حين تؤلف الكتب الاعلامية على اساس علمي ، ويكون هدف الكتب العلمية بناء المجتمع الحديث . ولا اتصور ان هناك رقيباً يمنع مثل هذه الكتب .

ومن اهم توصيات الحلقة انشاء شركة التوزيع العربية ، التي نرجو الا يكون مصيرها مثل مصير مؤسسات التوزيع في بعض الدول ، التـــي تنام في مستودعاتها كتب ومجلات الدولةالتي اسستها مع مطبوعات الدول العربيةالاخرى نتيجة للنظام البيروقراطي والروتين الاعمى والاصول المالية المعقدة التي تجعل امين المستودع يخشى اخراج الكتب وادخالها كيلا يفقد بعضها ، حتى اذا ضاقت بها المستودعات وعفى عليها الزمن - وغالباً ما تكون من النوع الذي يعالج موضوعات الساعة ولا يفيد بعد ساعة - اخرجها امين المستودع بالعدد لتوضع في ميزان الاطنان وترسل الى مصانع الورق لتعجن من جديـــد وتعود ورقاً ناصع البياض .

وقد عبر عن ازمة الكتاب العربي الدكتور سيد نوفل الامين العام المساعد لجامعة الدول العربية عند افتتاح الحلقة، اذ قال : « لقد تزايد انتاج الكتاب العربي كماً ، ولكنه انحط كيفاً وتوزيعاً رغم الزيادة المطردة في اعداد المتعلمين ... لم يكن الكتاب العربي مثلما نراه اليوم في جملته : جهداً قليلاً واخطاء كثيرة مطبعية ولغوية وعلمية ... ولهذا كان كتابنا يلقى عناية اعظم من الرأي العام العربي ، واقبالاً اكثر من القراء ... وكان باب النقد الادبي في مقدمة ابواب الصحف اليومية والمجلات العامة والمتخصصة والاذاعة الناشئة ذاتها. وكانت هذه القوة تفرض نفسها في سيرورته في المجال المحلي وتداوله على النطاق العربي ، ولم تكن تستطيع هيئة او حكومة ان تضع قيوداً على هذه السيرورة وان تتحدى سلطان الكتاب ... ». ولكن الناشرين انكروا انحطاط الكتاب العربي ، فاضطر الدكتور نوفل الى تأويل الانحطاط بانه تقصير الكتاب العربي في ملاحقة الكتاب الاجنبي وفي مواكبة العلم المعاصر وتزايد المتعلمين العرب .

والحق ان الدكتور نوفل كان يتحدث عن حرية تنقل الكتاب العربي ، وما دامت كتب التراث والكتب المترجمة تنتقل بحرية ، فالمقصود اذن هو الكتب المؤلفة حديثاً التي انحطت لغتها وغثت افكارها . فهل نكتفي باحياء التراث العربي وترجمة الفكر العالمي المعاصر ؟ ان احياء التراث يحتاج الى اجيال من المحققين ، وحسبنا اجراء مسح للمخطوطات المنفية ولا سيما في دور الكتب التركية والاسبانية والبلغارية ، وايداع صور عنها في جامعة الدول العربية مثلاً بانتظار تحقيقها ونشرها حسب اهميتها .

ولا جناح علينا اذا كنا ما نزال في عهد الترجمة ، فقد قامت الحضارة

العربية على ترجمة آثار الاغريق حتى تمثل العرب علومهم واخترعوا غيرها كالجبر وحساب اللوغارتيمات ، وعاد الغرب يترجم العلوم عن العربية حتى اقام حضارته المعاصرة على اساسها . فهل اذا حافظنا على اصالتنا بالارتباط بالتراث ، وتمثلنا الحضارة الغربية بعد ترجمتها ، نستطيع المساهمة مع غيرنا من الشعوب في بناء الحضارة المعاصرة ؟

تشريح المعجزة

للكاتب الهندي ديوان بيرندرانات

عرض وترجمة : هشام الدجاني

نشر الكاتب الهندي التقدمي ديوان بيرندرات مؤخراً كتاباً عن القضية الفلسطينية بعنوان : « حرب وسلام في غرب آسيا »(١) . والكتاب دراسة مستفيضة للقضية الفلسطينية ، تناول فيه الكاتب باسلوب متقص للحقائق أعمال العصابات الاسرائيلية العدوانية قبل إعلانها « دولة » ، وبعد ذلك . كما تحدث عن مطامع اسرائيل التوسعية ، والدوافع الحقيقية لحرب حزيران ، ثم مناورات القضية في أروقة الأمم المتحدة .

ويتحدث المؤلف بعد ذلك باسلوب موثق عن حقيقـة اسرائيل ، ويفند مايسمى بالمعجزة الاسرائيلية ، كما يفند اتجاه النظام الاجتماعي في اسرائيل الى الاشتراكية .

ومن الجدير بالذكر أن للمؤلف كتاباً آخر عن القضية الفلسطينية بعنوان «فلسطين . . نظرة الى المشكلة »(٢) . اتبع فيه المؤلف طريقة السؤال والجواب ، وفيه يجيب

---

(١) War and Peace in West Asia - New Delhi « Topical Publications » First Edition, January 1969

(٢) Palestine .. Problem in Perspective - New Delhi « Topical Publications » - Fourth revised edition - August 1968

المؤلف على عديد من الأسئلة الهامة حول واقع القضية وتطورها ، وواقـــع ادعاء اسرائيل ،بالاضافة الى عديد من الأسئلة الأخرى التي تهم الرأي العام غير العربي .

ولا شك ان الكتابين الموضوعين باللغة الانكليزية من كاتب حر ومحايد ، يقدمان خدمة طيبة للقضية ، ويساهمان مساهمة مثمرة مع الاعلام العربي في شرح حقيقة اسرائيل وفضح نواياها ووسائلها أمام العالم .

وقد اخترنا من الكتاب الأول **حرب وسلام في غرب آسيا** مقتطفات من الفصل الثامن بعنوان « تشريح المعجزة » نقدمه فيما يلي :

* * *

كثير من الجدل قد ذهب الى تأييد الجهود الرامية الى اظهار اسرائيل بمظهر الأمة الحديثة المتقدمة . ولقد تَبجَّح بالمعجزة الاقتصادية لاسرائيل بشكل خاص للتأثير على العالم لتبدو نموذجاً للدول النامية . ان نظرة واقعية الى مثل هذه الدعاية ، سوف تكشف أن هذه المعجزة تتبدد وهماً . ومن جهة ثانية فان مايسمى بالانموذج لايمكن ان يكون مثالاً لأي بلد افريقي او آسيوي، طالما أن اسرائيل نفسها لاتعتبر نفسها دولة في الشرق الأوسط بالمعنى الحقيقي للعبارة . ولنقتبس كلمات دافيد بن غوريون : « إن دولة اسرائيل هي جزء من الشرق الاوسـط جغرافياً فقط ، اي مايعني بشكل رئيسي عنصر الثبات . أما من الناحية الفعـالة للديناميكية والخلق والنمو ، فان اسرائيل هي جزء من اليهودية العالمية »[١] .

وبعبارة صحيحة إن هذا التأكيد يبلغ مبلغ التسليم بأنها أرض مستعمرة محاطة بأراضي الآخرين ، حيث لم يغتصب الغزاة الأرض فقط ،بل طردوا بالقوة الوحشية السكان المحليين . وإن جلّ مايسمى بالتقـــدم قد تحقق بفضل الحقيقة البسيطة ؛ وهي ان اسرائيل دولة يسيطر عليها المهاجرون الغربيون . ومن المفهوم

---

(١) David Ben Gurion, « Rebirth and Destiny of Israel » p. 489

أن مستواهم الثقافي والتقني أعلى من ذلك المستوى السائد في أي من البلدان الأفرو – آسيوية التي ظلت لقرون عدة تحت النير الامبريالي . ووفقاً لما جاء في الكتاب الاسرائيلي السنوي (١٩٦٤ – ١٩٦٥) ، فان ٦٣ ٪ من المهاجرين في الفترة الواقعة بين (١٩٤٨ - ١٩٦٣) قد جاءوا من دول أوروبا وأمريكا. ومن السكان الذين يزيد عددهم قليلاً عن مليوني نسمة ، يزيد عدد اليهود الغربيين عن مليون و ٤٠٠ الف . فاذا تجاهل المرء ربع المليون من العرب الذين لايتمتعون بأي وضع سياسي في الدولة الصهيونية ، فان السيطرة الكاسحة لليهود البيض تصبح واضحة كل الوضوح .

ومن السهل دوماً نسبياً لأي مجتمع ، يضم أفراداً مثقفين ثقافة عالية ومتقدمين تقنياً قد هاجروا من دول متقدمة ، أن يحقق بعض التقدم في مجالات ما . وتقدمهم ، ظاهرياً ، سوف يمثل دوماً نقيضاً بيناً للأوضاع القائمة لدى الجارات الأفرو – آسيويات .

وفي الهند ، مثلاً ، قبل تحرر (غوا) ، كان من عادة الحكام البرتغاليين أن يدعو أن (غوا) كانت متقدمة اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً اكثر من الهند . لنفترض أن معظم سكان (غوا) المحليين قد طردوا ، وجاء المستعمرون البرتغاليون ليحلوا محلهم هناك ، فمن الواضح أن ذلك الشعب سيدعي درجة اكبر من التقدم بالنسبة للشعب الذي ينتمي الى سائر الهند . ومع هذا هل يستطيع ان يتوقع أحد أن البرتغاليين سيطالبون بغوا لمجرد ذلك ؟ وبصفة مشابهة ظل الانكليز ، حتى أرغموا على مغادرة الهند ، يقولون دوما إن الهنود كانوا متخلفين ، وإنهم – أي الانكليز – قد جاءوا فقط من أجل تعليمنا طرق العالم المتمدن ، ومن أجل تخليصنا من جهلنا وتخلفنا . وحرب الاستقلال الأولى عام ١٨٥٧ قد اعتبرت دوما

من قبل المؤرخين البريطانيين كمواجهة بين القوى العصرية من جهـــة ، الاقطاعيين وزعماء القبائل الاقليميين الصغار في الهند من جهة ثانية . ونحن لسنا بحاجة الى مناقشة حقيقة هذا التأكيد . ولا حاجة بنا الى القول إنه بغض النظر عن طابع قيادة الثورة ، فانه لايوجد هندي وطني يمكن أن يفكر بتبرير الحكم البريطـــاني ، وأن يشعر بالسعادة للانتصار الامبريالي على قوى التحرر الوطني .

لنأخذ مثلا من العالم المعاصر . إن الحكام البيض لجنوب افريقيا وروديسيا الجنوبية يدعون مقداراً كبيراً من التقدم لمستعمراتهم بالمقارنة مع الدول الافريقية المجاورة . هذا الإدعاء لم يبرئهم من الجرائم التي ارتكبوها بممارستهم سياسة التفرقة العنصرية . والمرء يتساءل حقاً كيف يستطيع العالم أن يتغاضى عن جرائم مشابهة للحكام الصهاينة الذين يمارسون سياسة أسوأ بكثير من زملائهم في جنوب افريقيا وروديسيا الجنوبية ضد السكان المحليين ! وبينما لم يلق حكام الدولتين الأفريقيتين على الأقل بالسكان المحليين خارج البلاد ، فقد تخلص المستعمرون الصهاينة تماماً من معظم السكان الذين كانوا يقطنون البلاد . وأولئك الذين مازالون في المنـــاطق الواقعة تحت سيطرتهم هم ضحايا أسوأ نوع من التفرقة العنصرية .

جرائم الحرب في ڤيتنام (١)

تأليف : برتراند راسل

ترجمة : محمود فلاحة

عرض : ميشيل كيلو

« ان الحد الذي ذهب اليه الليبراليون والاشتراكيون في قبول المزاعم السياسية حول ضخامة وقدرة القوى الكامنة وراء الحرب الباردة ، يشكل أحد المظاهر الباعثة على اليأس في السياسة الدولية . فدور الولايات المتحدة كمتدخل دائم في الشؤون الدولية الأمم الاخرى قد بات و كأنه امر مقدس ، ويقبل بسعادة حق الولايات المتحدة بالتدخل في البلدان الاخرى اذا تناقضت سياسة هذه البلدان الاجتماعية والسياسية مع القوة الاقتصادية الخاصة » (٢)

---

(١) منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٦٨

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣

هذا مايقوله برتراند راسل في مقال من كتابه «جرائم الحرب في فيتنام» بعنوان «بربرية العالم الحر».و كدليل على ان الاشتراكيين الامريكيين لايفهمون طبيعة الصراع الدولي القائم ، يسوق المؤلف مقطعاً من مجلة «ديسنت» الاشتراكية حول الحرب الفيتنامية :

« بل ان عسكريي الولايات المتحدة لم يعودوا يقولون ان الحرب في فيتنام الجنوبية يمكن كسبها ، فالمسألة الآن كيف تقلل الخسائر وتخفف . ولكن الاستمرار في السياسة الدولية يعني ابادة شعب فيتنام ، ولابد من التأكد بأن انسحاب الولايات المتحدة من تلك البلاد سيعني أمراً غير انساني البتة ، إذ لن تمر شهور على الاغلب حتى تقع كلها تحت السيطرة الشيوعية ، وهذا ستعقبه بلا ريب مذبحة في فيتنام الجنوبية سيذهب ضحيتها من حارب الشيوعيين . ان التخلي عن هؤلاء بعد سنوات من حرب أهلية ضروس سيكون عملاً قاسياً »[٣].

هذا الموقف « الاشتراكي » يتجاهل طابع الحرب في فيتنام . فهو وان لم يتحدث عن تدخل شيوعي خارجي ، الا انه يعطي لحرب الولايات المتحدة ضد الشعب الفيتنامي طابعاً خاصاً يتجلى في حماية الملايين من الناس الذين سيذهبون ضحية « لمذبحة » رهيبة يقوم بها الشيوعيون ، فيما لو انسحبت الولايات المتحدة من هناك . هذا الرأي هو بالطبع تعمية هدفها الحيلولة دون كشف الطابع الحقيقي للحرب الامبريالية الدائرة في الفيتنام بين قوة عالميـــة مسيطرة تعتبر الحركات الجماهيرية في العالم تهديداً لمصالحها في عقر دارها ، وبين هذه الجماهير التي ضاقت ذرعاً بالحكومات الصورية المفروضة عليها . واذا كان الاشتراكيون ينكرون الطابع الاجرامي للحرب الامبريالية ، ويحـــاولون تجميلها ، فان الليبراليين

(٣) المصدر نفسه ص ٧٤

يحاولون الدفاع عن المؤسسات الاجتماعية التي يحارب الامريكان للحفاظ عليها سواء في فيتنام أو في الولايات المتحدة نفسها ، وهذا واضح من الرسائل التي تبادلها اللورد راسل مع جريدة نيويورك تايمز التي انكرت ان يكون هدف الولايات المتحدة من الحرب هو « الابقاء على نظام حكم تعسفي اقطاعي في الجنوب من اجل حماية المصالح الاقتصادية للولايات المتحدة والحيلولة دون حدوث اصلاحات اجتماعية بعيدة المدى في هذا الجزء من العالم ، كما كان اللورد راسل قد زعم . » . وقد ارادت الصحيفة تحويل مناقشتها مع اللورد راسل الى مناظرة تشرح فيها اسس التدخل الشيوعي وأهدافه ، دون ان تهتم بأن هناك مقررات دولية بشأن فيتنام تجاهلتها امريكا عن عمد وتصميم ، ودون ان تمحص في تهمة الشيوعية التي توجهها دوماً الى « جبهة التحرير الوطني الفيتنامية » في الصحف الامريكية .

هذا الموقف الاشتراكي الليبرالي ليس نابعاً من عدم تفهم الوضع الدولي الذي يدور الصراع فيه حالياً على مستوى قومي وعالمي ، بل هو نابع من انحياز هذين الاتجاهين للامبريالية ، ولهذا فانهما يبرران فقط مايقوم به اليمين الامريكي في صراعه مع الشعوب . وفي وصف هذا الموقف يقول راسل : « وبدلاً من التساؤل كيف ان الرأسمالية الفردية المتضامنة والتزاماتها العالمية الواسعة قد غدت تعرف بالمصالح الوطنية الاميركية ، قبل الليبراليون والاشتراكيون (خفة اليد) هذه التي اجتثت بنجاح اليسار من السياسة الاميركية » (١) .

بعد فضح هذا الموقف الذي يعني عملياً الدفاع عن المصالح الامبريالية والانحياز لها في معارك العصر الدائرة ، كما يقول راسل ، « بين الشعوب وبين اليمين الاميركي » يبدأ المؤلف في تفنيد حجج الليبراليين والاشتراكيين التي تزعم

(١) ص ٧٣

بأن ما يرتكبه الجنود الامريكيون في فيتنام من جرائم هو نتيجة من النتائج الطبيعية للحرب ، وان طابع كل حرب هو العنف ، فيوضح أنه قد ارتكبت في فيتنام بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٦٠ جرائم تفوق بهولها وبشاعتها تلك التي تمكن الامريكيون من ارتكابها بعد ان بدأ الشعب يدافع عن نفسه بقوة السلاح . فقد قتل مثلاً عام ١٩٦٠ ألف انسان وشوه ٧٠٠ الف واعتقل ٤٠٠ الف واقيم ١٦ الف معسكر اعتقال ، أن اي الجرائم بلغت ذروتها قبل الحرب التي بدأت في نهاية عام ١٩٥٩ واشتدت مع اعلان «جبهة التحرير الوطني» في عام ١٩٦٠ . وبلغت راسل نظر المدافعين عن جرائم الرأسمالية الى أن الوضع الذي اعقب عام ١٩٦٠ يمتاز بدفاع الشعب عن نفسه دفاعاً مستميتاً .

أما رده على من يتحدثون عن التدخل الشيوعي في شؤون فيتنام ، فهو يقدم لهم جزءاً من برنامج الجبهة الوطنية لتحرير فيتنام ، وهو ينص على :

« أ - إقامة ديمقراطية حقيقية يضمن فيها القانون لفئات الشعب جميعها دون تمييز : حرية الفكر والتعبير والصحافة والتنظيم والاجتماع والتظاهر وتأسيس النقابات، وحرية تشكيل الأحزاب والمنظمات المهنية والاجتماعية والسياسية، وحرية الانتقال والعمل والعقيدة والعبادة والحريات البدنية .

ب - منع الاضطهاد والاعتقال والتوقيف ومضايقة الوطنيين والمعارضين أفراداً واحزاباً .

جـ - عدم اقامة اي شكل من أشكال الحكم الديكتاتوري في فيتنام الجنوبية، سواء كان عسكرياً ام عشائرياً ام قائماً على حزب او جماعة، والاحجام عن اتباع سياسة الحزب الواحد او الدين الواحد او سياسة الديكتاتورية في الايديولوجية والامور السياسية والمعتقدات والاقتصاد .

د – اجراء انتخابات عامة لاختيار النواب ، وتشكيل حكومة ائتلاف وطني مؤلفه من ممثلي مختلف قوى الشعب في فيتنام الجنوبية واحزابه واتجاهاته وطبقاته ، واتباع سياسة حياد لاتتبع أية كتلة عسكرية ولا تفسح المجال لأية دولة أجنبية كي تضع قواتها او تقيم قواعد لها في فيتنام الجنوبية . اننا سنقبل المعونات من جميع البلدان دون النظر الى نظمها السياسية وسنقيم علاقات صداقة على أساس المساواة مع جميع الدول » .(١)

هذا البرنامج يستند الى حياد فيتنام بين المعسكرات ، والى قيام جبهة داخلية لاتستثني أية قوة تريد الاسهام في بناء دولة فيتنامية حديثة وتقدمية .فلماذا تقوم إذن قوى متنورة فكرياً كالقوى الليبرالية والاشتراكية بدعم الجهازالحاكم الامريكي وبتشويه سمعة حركات التحرر الوطني ؟ يجيب راسل على هذا التساؤل بأن المصالح العالمية للامبريالية الامريكية وطبيعة المعركة الدائرة الآن قد خلقت ممارسة وفكراً عنصريين في الولايات المتحدة وجميع بلدان الاستغلال الرأسمالي ، ويستشهد على هذه العنصرية بجملة لجونسون : « اذا لم تملك الولايات المتحدة تفوقاً جوياً مطلقاً ، فان جنودنا سيكونون عرضة للهجوم من كل قزم اصفر يحمل سكيناً في جيبه » .كما يدل على هذه العنصرية ما يقال للجنود الامريكيين عن أعدائهم ، وبالطريقة التي يكبت بها السود سياسياً واقتصادياً داخل الولايات المتحدة نفسها . هذه العنصرية هي القاسم المشترك الاعظم لجميع الاتجاهات السياسية والاقتصادية غير اليسارية في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان ، وهي تفسر ، في رأي راسل ، المواقف التي تتخذها مختلف الاتجاهات في البلدان الرأسمالية .

---

(١) ص ٨٦ – ٨٧ .

ما هو الحل الذي يقترحه راسل للخروج من الازمة الحالية ؟ انه «مقاومة موحدة منسقة لهذا الاستغلال، فالنضال الشعبي للشعوب المضطهدة سيحرر مصادر القوة من سيطرة الامبرياليين الاميركيين ؛ فيقوي بذلك شعب الولايات المتحدة نفسه الذي يناضل ليتفهم الحكام القساة الذين اغتصبوا ثورته وحكومته ثم ليتغلب عليهم ويقهرهم ، وهذا في نظري هو السبيل الى خلق سلام مضمون دائم . ولا يمكن تجنب خطر حرب نووية من خلال خشية قوة الولايات المتحدة ، بل على العكس من ذلك ... اذ كلما ازداد ممارسو القوة الاميركيون عزلة ، ازددنا نجاحاً في تجنب فاجعة نووية ، وما الادعاء بان اميركا تستطيع ان تحقق اهدافها وتهزم الشعوب باستعمال هذه الاساحة التي تشكل اليوم عماد الخطر النووي الا تضليل من جانب الامبرياليين ، فحين تتظاهر الشعوب وتناضل وتقاوم تغدو القوة النووية عديمة الجدوى، وحيازتها ستصبح وبالاً وستدمر مستعمليها ..» .(١)

ان كتاب « جرائم الحرب في فيتنام » هو مجموعة ابحاث ومقالات وخطب ، واذا كان من الصعب عرض صورته الحية ومحتواه الموضوعي في ملخص موجز كهذا ، فان موضوعات الكتاب هي الصورة الحية عن معارضة مؤلفه برتراند راسل للظلم والاضطهاد وتعلقه بالسلام والتقدم .

---

(١) ص ١٣٧ - ١٣٨ .

مع الريح (١)

تأليف : عبد السلام عيون السود

تحليل : عدنان بن ذريل

يرجع كتاب (مع الريح) للفقيد (عبد السلام عيون السود) الى أوائل الخمسينات من القرن الحالي ؛ إذ كان أعد للطبع قبيل وفاته ، وحدث عنه اخوانه ، وضمّنه حصيلة تجربته الأولى في الشعر ، إلا ان يد الردى لم تمهله لطبعها ، ونشرها ، واختطفته شاباً لم يتعدَّ الثانية والثلاثين من العمر ؛ في عام ١٩٥٤ ، وكان مصاباً بمرض القلب ؛ أمضه التوسع الإكليلي في شرايين قلبه ، والذي اكتشفه قبل وفاته بثلاث سنوات ، فلم يستطع انقاذ نفسه منه ..

وبقيت مجموعته الشعرية ، وهي المجموعة الاولى والاخيرة له ، مطوية زهاء خمس عشرة سنة ، حتى نشرتها مؤخراً وزارة الثقافة بدمشق ، في سفر يضم آثاره الشعرية ، والنثرية ، وكلمات رثاء قيلت فيه ..

ولعشرين سنة خلت ، وهي الفترة التي وعت نبوغ (عبد السلام عيون

---

(١) منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٩

السود) في الشعر ، كان الشعر العربي في سورية ، ما يزال يخضع للتقاليد الشعرية المتوارثة من عمودية القصيدة ، او اساليبها المعهودة الخطابية ، او الوصفية ؛ إلا انه كان قطع شوطاً ملموساً وظاهراً في التجديد الشعري الحديث ، خاصة في الاتجاه الوجداني ، والتأملي ، الذي روّجه المهجريون ؛ ثم الاتجاه المذهبي ، ومنه المذهب الرمزي الذي ساد وقتها ، فترة ، ثم غلبت عليه حياتية الشعر الحر الحديث ...

وقد كان النقد الادبي وقتها ينشط ليحقق ذاته ، بفعل الثقافة الفنية والادبية الحديثة ، التي كانت تنميها البيئات الجامعية العربية ؛ كان النقد الادبي للشعر خاصة يترعرع في اتجاه انصاف النص الشعري ، والشاعر ، والبيئة ، والفترة ،على السواء .. وكانت الدراسات الادبية في الشعر وقتها جادة في الاخذ بالمناهج العلمية التاريخية ، والنفسية ، والاجتماعية ؛ الامر الذي كان يمد الإبداع الشعري ونقد الشعر كليهما بالنسغ الفني الصحيح المفيد .

وكان (عبد السلام عيون السود) ، في أواسط الأربعينات ، وأوائل الخمسينات من القرن الحالي يتنفس نسَمات هذه الثقافة الأدبية الشعرية ، وقتها.. يصطدم بتقاليدها ، أو يجاري تياراتها ؛ فماذا كانت النتيجة بالنسبة لإبداعه الشعري ؟

في الحقيقة ، بدأ يقلد القديم ؛ ثم جارى الشعر الوجداني ، والتأملي ، وقتها .. ولكنه لم يتمذهب ؛ وعلى الخصوص لم ينح نحو الرمزية ، وهذا شيء واضح في هذه المجموعة ، وهي الوحيدة التي تركها على درب الخلود ..

كان (عبد السلام عيون السود) ، وهو الذي أمضه مرض القلب ، أغزَرَ شعوراً ، وأكثَرَ رهافةَ حسٍ ، من أن تقنعه تخيلات أو سبَحات

حالة ..ولذلك انصرف الى تجربته نفسها يعبر عن مضامينها نفسها من وجدانات، ومعانٍ ، وأحاسيس ، التعبير المباشر ، المليء بالوجدان ، بالحزن ، بالحرقة ، واللوعـــة ..

وإن مـا نجده في بعض قصائده من صور وتشبيهات وأخيلة تكتنفها الضبابيـة والغموض ، هو بالأحرى نتيجة حـدسٍ استبطانيٍ متوقـدٍ وصادق.. يقول في قصيدة (أفعى) ، يتحدث عن ذاته :

في رهبة السر عاشت   وأرهقت شفتايـــا
وزحمة الليل أمرت   وأوغلت مقلتايـــا
وفي السحيق ضريح   نحـره نجوايـــا ،
وفي الغيابـــة أفعى   ضَكت عليّ الزوايا

* * *

كوني كما شئت كوني   فلن تكوني سوايـا
قطرت فيك سمومي   تركت فيك صدايـا

* * *

يا لمحـــةً من جحيم   ويا خيـال المنايـــا
ويا حطـــام صليب   ويا ركـام ضحايـا
لا تقنطي من شحوبي   ولا ترعك النوايـــا
بعضي يواكب بعضي   والشعر ملء دمايـا

وبالفعل يمكن إرجاع هذه اللمحات التخيلية المتقدة ، وبعضها رمزي ، الى أثر الاتجاه الوجداني في الشعر وقتها أكثر من أثر الانضمام في مذهب .. إنها بالأحرى لمحاتٌ وجدانيةٌ عن ذاتيةٍ يَستَبْطِنُها قسراً عنه ؛ وتتجلى هذه الذاتية في شعره ، مقهورةً ، مهيضةَ الجناح ، حتى في حزنها ، وتأملها :

أنا حريتي أردت فكانت أنا شخصيتي ، ومالي حد
في دمائي كر ، وفي نفسي طول ، وفي خطوتي انسراح وسد

* * *

عبثاً نلتقي .. عرفتك يا غيري ، يا ليل ، ضاق بالليل صدري
نحن سطران ، والمسافة تبقى أبد الدهر بين سطر وسطر

* * *

لاالتفات ، فرغت حتى من الصمت عميقاً أرخيه حولي هاله
من تراني أكون ، إن عشتُ للناس وأمعنت في الضلال محاله ؟

وكثيراً ما يفصح عن مضمون تجربته الذاتية ، وأحوالها ، خاصة إعياؤه برضه :

أنا يا أخت متعبٌ وسلي الريح .. سليها تجبك عن إعيائي
شقني الدرب فارتميت على الدرب مصيراً مخضباً بدمائي
كيف أحيا يا أخت ، أدركني الليل ودب الصقيع في أعضائي
وتهاويت مثقلاً ، ناء بالعبء ، فألقى يديه : خيطيَّ عناء ..

أو يسقط تجربته على الناس :

قالت : تعبت كفانيه .. أنا للخريف حياتيه
كف المنون ثقيلة ، كالليل .. تقرع بابيه
دعني وراء الجدر ، لا تقلق ، جراحك داميه
فيم الشحوب ؟ تخاف أن أذوي ؟ يروعك ذاتيه؟

لو أستطيع ..وأطرقت ، حيرى ، تداور مابيه !

* * *

أختي ، سيدركنا الردى ..لا بد ..فاعتمدي عليّ !!

ومثلما آثر (عبد السلام عيون السود) التعبير الوجداني والحدسي أيضاً المباشـر فزخم شعرهُ بالمضمون وندرتْ فيه الأخيلة والتشبيهات ، كذلك آثر له (الموسيقية) بأشكالها في السبك أو الوزن والقافية ..ومن أشكال الموسيقية عنده اصطناع التقفيـة الاسكندرانية بيتين فبيتين ، أو التقفية الثلاثية ومن أمثلتها :

هي في الدار شقيه .. كيف لا أغضي عشيه
مرهف وجهك يا رب .. ورعشاتي خفيـه
أبتي أنت ، ألا تبصر ، في جرحي شظيه ..

* * *

ودمي ، أين دمي ؟ هل غاله الموت ، فأصفى ؟
لمَ أحيا ؟ !. أنا للزنبق ، والزنبق أغفى ..
شدّني الشوكُ إليه .. مد للمشدود كفا ..

والمجموعة بشواهدها المختلفة ، سواء من حيث مضمونها ، أو أسلوبها المميزين ، دليـل صدق على أصالة (عبد السلام عيون السود) وعلى الشوط الذي قطعه الشعر العربي في سوريا ، مع إطلالة النصف الثاني من القرن العشرين ؛ واستطاعت شاعرية عبد السلام عيون السود أن تجسده في مداه ولويناته حتى الشخصية منها ..

حضارة أنطاكية عبر العصور [1]

تأليف : نخلة ورد

عرض : نواف أبو الهيجاء

من بين الكتب القليلة التي تبحث في تاريخ انطاكية بحثاً مفصلاً ودقيقاً كتاب « حضارة انطاكية عبر العصور » للأديب المهجري المرحوم نخلة ورد[2] .

---

(١) مطبعة اسقدي التجارية – منظمة جبل صقدي – سان باولو – البرازيل .

(٢) كان مقرراً أن يعود نخلة ورد الى دمشق خلال كانون الثاني (يناير) من هذه السنة ليشترك في حفل تأبين استاذه المفكر العربي المناضل زكي الأرسوزي . الا أن حادث سيارة أصابه فأقعده عن تحقيق أمنيته ، ثم أودى به قبل أن يعود الى الوطن وكان قد فارقه قبل حوالي عشرين عاماً . عاش نخلة ورد شبابه في انطاكية ، وحرر في جريدة العروبة التي كانت تصدر فيها آنذاك ، وطرد منها مع زكي الأرسوزي والمناضلين العرب أثناء المؤامرة التي تمت لالحاقها بتركيا .

من مؤلفات نخلة ورد أيضاً : حفنة من تراب الوطن – كلمات للريح – ومقالات كثيرة اخرى نشرت في صحف ومجلات عربيـــة من بينها « المعرفة » وكلها تتغنى بالعروبة .

نشرت له وزارة الثقافة بدمشق كتاباً مترجماً بعنوان: **مختارات من القصص البرازيلي** .

ويقع الكتاب في مئتين وخمسين صفحة من القطع الكبير ،وهو مزود بمجموعة من الصور التي تعين القارىء على ادراك ما يقرأه من اوصاف المدينة التاريخية العظيمة .

ومدينـــة انطاكية لها منزلة خاصة في نفوس أبناء شعبنا لما تحمله من ذكريات مريرة وحلوة في الوقت ذاته ، ولما آلت اليه بعد ان وقعت الاقطار العربية تحت السيطرة الاستعمارية التي عملت في هـــذا الوطن تمزيقاً ليسهل عليها ضربه جزءاً بعد جزء ولتتمكن من ابقاء السيطرة الغاشمة على جميع اجزاء وطننا الكبير .

وفي كتاب الاديب نخلة ورد عن انطاكية لايملك القارىء الا ان يتوقف امام العديد من الأمور التي يطرحها فيه :

١ ـ استعان الأديب لتوضيح مدى أهمية هذه المدينة العظيمة ، وجماله. وتاريخها بأقوال واستشهادات لكبار المستشرقين والمؤرخين العالميين مثل « لي كاموس » و « فون بوشيم » وللرحالة العرب مثل ابن بطوطة . وكان في هـذا موفقاً جداً لابعاد الصيغة التقريرية التاريخية الرئيسية عن الكتاب .

٢ ـ وتأكيداً لهذا الخط في البحث التاريخي المتفرد عن هذه المدينة عمد الى اجتزاء اقوال وخطب واوصاف متعددة دقيقة لانطاكية عبر مختلف العصور التي عاشتها بدءاً من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى يومنا هذا تقريباً . فأضفى على الكتاب صبغة ادبية جميلة جعلته يقف في اول الصف الخاص بالبحوث الممتعة عن مدينة ما .

٣ ـ كان الاستاذ الاديب نخلة ورد موضوعياً في سرد الاخبار التاريخية وحوادثها عن هذه المدينة ،وهوابنها المهاجر عنها بعد ان اقتطعت عن الوطن الأم .

والروح الموضوعية تعتبر عاملاً من أهم العوامل التي تساعد أي جانب في عملية اتخاذ موقف نزيه ومشرف .

بعد هذه الملاحظات السريعة الثلاث عن الكتاب ، أقول ان عملية تلخيص الكتاب ستكون عملية مجحفة بحقه ولا تفيه قطعاً لأنه ، رغم توسعه في البحث التاريخي من زواياه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية ، كان مركزاً جداً بحيث بات من الصعب ، بل من المستحيل ، القيام بهذه العملية دون أن يلحق المؤلف والكتاب ظلم فادح .

يبدأ الكتاب باسطورة زيارة الإله ابولون لاوديسي في المنام لتتزوج بعد ذلك بالفارس الوسيم انطيوخوس ولينجبا طفلها ساوقس . وهذه السلالة هي أول من بنى مدينة انطاكية واتخذها عاصمة وسميت باسم الوالد « انطيوخيا » . ويسرد الكاتب بالتفصيل كيفية بناء المدينة ولماذا اختير مكانها الراهن ليكون موطناً لأول مدينة تاريخية من نوعها تشهد ما شهدته هذه المدينة من احداث وتمخضات ، من مصائب وأهوال ، ومن مهرجانات وملوك وقياصرة وحكام . ويعطي المؤلف بايجاز لمحة عن العهود التاريخية لانطاكية :

٢٣٦ سنة تحت حكم اليونان (٣٠٠ — ٦٤ قبل الميلاد)
٤٥٩ سنة تحت حكم الرومان (٦٤ قبل الميلاد — ٣٩٥ بعد الميلاد)
٢٤٢ سنة تحت حكم بيزانس الاول (٣٩٥ — ٦٣٧)
٣٣٠ سنة داخل الدولة العربية (٦٣٧ — ٩٦٧)
١١٧ سنة تحت حكم بيزانس الثاني (٩٦٧ — ١٠٨٤)
١٣ سنة تحت حكم الاتراك (١٠٨٤ - ١٠٩٧)
١٧١ سنة تحت حكم الصليبيين (١٠٩٧ - ١٢٦٨)

ثم جاء الظاهر بيبرس ليخلص المدينة من يد الصليبين في سنة ١٢٦٨ م .

ومن أهم العصور التي مرت بهذه المدينة : العهد السلوقي الزاخر بالمؤامرات والحروب ، ثم العهد الروماني الذي بدأ بدخول بومبيوس انطاكية سنة (٦٤) ق . م. وفي هذا العهد دخلت المسيحية انطاكية ووجدت فيها عوناً كبيراً ، فكان لهذه المدينة أثرها البالغ في حماية البذرة الدينية ورعايتها والحفاظ عليها . وعندما انقسمت الامبراطورية الرومانية ، خضعت المدينة لحكم بيزانس . وفي هذه الفترة خفت الاهمية الكبيرة لمدينتنا وذلك ببناء مدينة (القسطنطينية) . ويتعاقب الحكام والامراء والقياصرة على حكم انطاكية ، وتشهد من بين ما تشهد عشرات الزلازل والهزات ، ومئات المعارك المدمرة ، ويقتل منها في كل مرة الآلاف من النساء والشيوخ والاطفال ، ورغم ذلك تجدد انطاكية شبابها ، وتبقى مركزاً ثقافياً وادبياً وحضارياً وتاريخياً من اهم المراكز في هذه المنطقة .

وتتطور العوامل التاريخية ، تتكالب على المدينة شتى أنواع الدسائس والعوامل لتدميرها . وإبان الفتح الاسلامي كانت سورية ممزقة وضعيفة ، وساد الظلم جميع ارجاء البلاد . « ومن صحراء فقيرة خاوية تعمر قلوب اهلها ارادة الحياة وصلابة الخلق ينبثق نور الاسلام بولديتيم قريش ، فيجمع العرب تحت راية الدين الجديد ليقودهم الى مصائرهم وامجادهم باتجاه البحر ، مندفعين كمده الزاخر » (ص ١٢٨) ويفتح العرب أرض الشام ويتقدمون شمالاً باتجاه حمص وحلب واللاذقية وانطاكية . وفي عهد الامويين تعرف انطاكية السلم لاول مرة .. سلماً حقيقياً ورخاء اقتصادياً الى ان جاءها الزلزال المدمر سنة ٧١٢ م .

ويستعرض المؤلف خلال هذه الفترة سمة الحضارة العربية العريقة ومختلف نواحي الحيـــاة الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والحضارية .. الخ . ومن

ثم تقع المدينة تحت سيطرة غاشمة أجنبية بعد تدهور الدولة العربية الاسلامية.

فيجيء بيزانس الثاني ويسيطر عليها .

ثم يتعاقب عليها الحكام وتتعاقب عليها الكوارث حتى جاء الصليبيون ليقوموا بالمذابح والمجازر البشرية وليزرعوا شرور العصبيات والاقطاعية .

ويأفل نجم المدينة العظيمة حيناً من الدهر ،حتى جاء الظاهر بيبرس فحررها من الصليبيين لتعيش عدة سنوات في ازدهار،وحين جاء العهد العثماني قضت السنوات الطوال هي وبقية أجزاء هذا الوطن في ظلام دامس .

ويشير المؤلف بعد ذلك الى ما كانت الحالة عليه بين ١٩٠٠ - ١٩٣٦ حين ضاعت انطاكية مع اللواء ،واعطيت لتركيا من قبل الاستعمار الفرنسي . وخلال هذه الفترة تقوم الحركة القومية والوطنية بزعامة الفقيد زكي الارسوزي ، داعية الى تخليص اللواء من الظلم وعودته الى أحضان الوطن الأم .

ويستعرض المؤلف المؤامرات التي حيكت على المستوى الداخلي والدولي لاقتطاع اللواء وسلخه عن وطنه الأم ، كما يستعرض النضال العربي لعودة اللواء ومدينته التاريخية العريقة « انطاكية » الى الوطن الأم .

ان كتاب « حضارة انطاكية عبر العصور » كتاب من أهم وامتع الكتب التي يقع عليها انساننا العربي والتي تبحث في تاريخ مدينتنا السليبة .

المؤتمر السابع للأدباء العرب :

يفتتح في ١٩ نيسان (أبريل) الحالي المؤتمر السابع للأدباء العرب في بغداد ، ويستمر أربعة أيام . وسيكون موضوعه الرئيسي (الأديب العربي ومشكلات العصر الحديث) . ويشترك أدباء الأقطار العربية في تقديم بحوث حول المشاكل التالية : دور الأديب العربي في المعركة ضد الصهيونية و. . . الاستعمار - دور الأديب العربي في بناء المجتمع العربي العصري - توثيق الارتباط بالتراث العربي - النشر - التفرغ .

مهرجان الشعر في البصرة :

وفي اليوم التالي لاختتام المؤتمر يبدأ مهرجان الشعر في البصرة، ويستمر أربعة أيام .

تمثال الأرسوزي :

نظمت لجنة تخليد ذكرى فقيد العروبة الأستاذ زكي الأرسوزي مسابقة لصنع تمثال للفقيد يوضع في الحديقة المسماة باسمه في دمشق ، ودعت جميع الفنانين العرب إلى الاشتراك في هذه المسابقة . سيمثل التمثال الملامح الدقيقة للفقيد ، ويعادل ضعف حجمه الطبيعي في وضعية القعود على قاعدة مناسبة يتولى الفائز

وضع مخططاتها . تنفذ القاعدة من الحجر أو الرخام ، وينفذ التمثال من البرونز .

ينحت الفنان رأس الفقيد بالشكل والملامح والحجم الذي سينفذ به ، مع دراسة مجسمة بارتفاع لايقل عن ٥٠ سم لوضعية الفقيد ـ على النحو الذي اختاره له ـ يوضح فيها التكوين والحركة ، كما يقدم مخططات القاعدة بمقياس ١/٥٠ مع رسم منظوري . ويمكن للفنان الذي يود الاشتراك في هذا العمل ، إعلام اللجنة خلال شهر نيسان (أبريل) الحالي ، وتقديم معلومات وافية عن كفايته وأعماله . وعندها ترسل اللجنة إلى الفنان ملفاً يتضمن معلومات وصوراً عن الفقيد تفيده في مهمته ، ومن المفروض أن يبعث الفنان مشروعه قبل حلول شهر تموز (يوليو) القادم باسم مستعار مع مغلف مغلق يتضمن اسمه الصحيح وعنوانه ، إلى لجنة تخليد ذكرى زكي الأرسوزي (مجلة المعرفة ـ شارع الروضة ـ دمشق) ، أو إلى سفارة الجمهورية العربية السورية في البلد الذي يقيم فيه الفنان .

وستشكل لجنة خاصة لدراسة المواد التي يقدمها الفنان ، تجتمع خلال الأسبوع الثاني من شهر تموز (يوليو) المقبل . وتعلن نتائج المسابقة في الصحف المحلية ، وتمنح لجنة تخليد ذكرى الأستاذ الأرسوزي جائزة للفائز الأول قدرها ٢٠٠٠ ليرة سورية ، وجائزة للفائز الثاني قدرها ١٢٠٠ ليرة سورية ، ويتولى الفائز الأول تنفيذ التمثال من الجص بالحجم المطلوب مقابل مكافأة تحدد فيما بعد .

مسابقة أناشيد :

نظمت وزارة الثقافة بدمشق مسابقة لوضع أناشيد قومية وللعمال وللمرأة . وستستمر في استلام هذه الأناشيد حتى نهاية شهر تموز (يوليو) القادم . ويمنح الفائز الأول عن كل نشيد مكافأة قدرها (١٠٠) ليرة سورية والفائز الثاني (٥٠) ليرة سورية . ولا حاجة لذكر أن القصيدة ستوقع بتوقيع مستعار ، يرافقها مغلف فيه الاسم الحقيقي للشاعر .